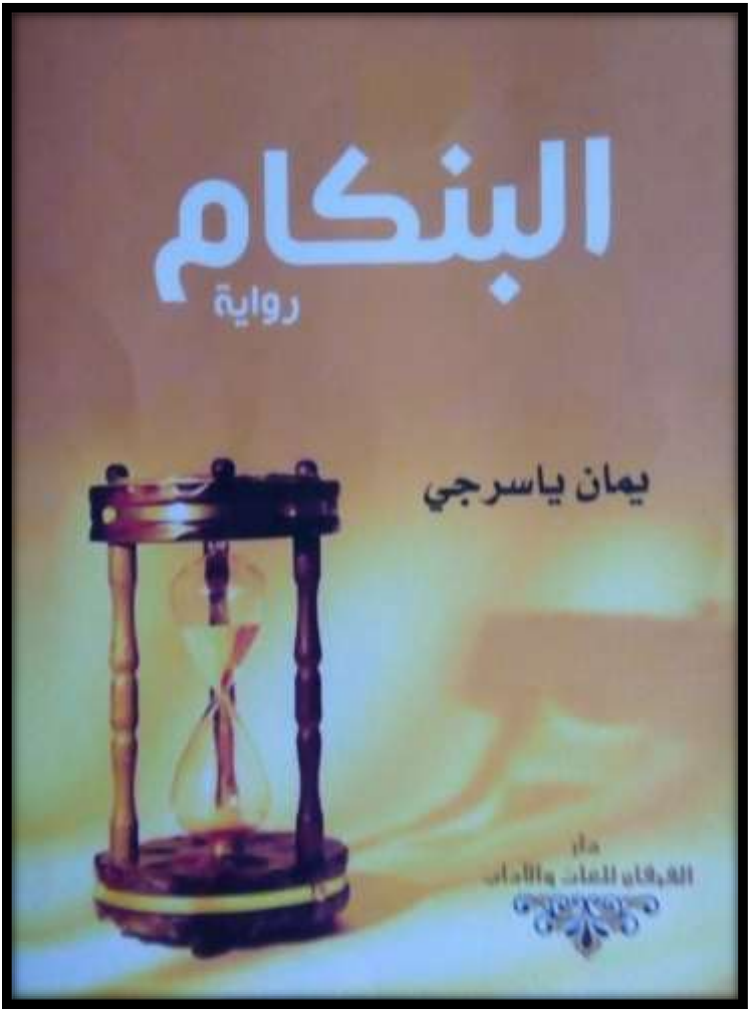
البنكام
رواية
يمان ياسرجي
دار

البنكام

رواية

عنوان الكتاب : البنكام

الموضوع : رواية

تأليف : يمان ياسرجي

قياس الصفحة : ١٤*٢٠

الطبعة الأولى : ٢٠٢٠

للتواصل مع المؤلفة :

Yaman1962@hotmil.com

هاتف جوال ٠٩٣٣٥٤٣١٣٨- ٠٩٦٨٥١٤٨٢٠

جميع الحقوق محفوظة

البنكام

رواية

يمان ياسرجي

أيها المبحر في لجة أدبي.. تذوّق كلماتي ولا تحاكمها.. ترفّق بالحروف المسكوبة من عصارة الفكر والوجدان.. ولا تجعلها متهماً قبل الإدانة.

الإهداء

أيتها البنكام.. يا سيدة التوقيت الأنيقة.. تعبر خصرك الجميل وحدات زمننا الهارب من فسحة إلى فسحة.. ومن لحظةٍ إلى لحظة.

نرحل بك.. عبر الزمن على متن آلة عجيبةٍ اسمها الحبّ، تتسارع بنا تارةً حتى كأنها تعبر الأفلاك بسرعة جنونية، وتتباطأ تارةً أخرى حتى كأنها واقفةٌ في عالمٍ متحركٍ...

مع الإهمال لا حبّ يبقى.. ولا عيش يهنأ..

فيا أيها الآخر الحبيب.. حين يطيب لك أن أكون إلى جوارك، ستجدني.. كفراشةٍ أُضيَ لها المصباح، فاقتربتْ.. لا تبالي بالاحتراق.

أصدقك القول.. ما نفع روائعنا إن بددها التقاعس واللاإنجاز.. وما نفع المقولات إن بقيت حبيسة الصدور.. هو ذاك ما أعني.. لزامٌ عليّ أن أُنهي ما بدأت، فالأشياء غير المكتملة كعبارة ناقصة لا يؤبه بها، مما يستدعيني أن ألتزم بجدولٍ زمني وموعدٍ نهائيٍ، يدفعانني إلى إنهاء وإتمام جميع بداياتي.

وكما أبدع الفكر الإنساني منذ القدم علوماً وفنوناً وآداباً، صارت كلها تراثاً غنياً غزيراً.. بالأدوات ذاتها.. الحرف

والكلمة.. ها نحن اليوم لم نزل نبدع بذات الأدوات، ولكن على اختلاف المضمون.. فقديماً.. اختلق الإنسان شخصيات الأساطير ليُعبّر بتصرفاتها وأقوالها عن معاناته الأبدية.. والأبدية، أو الخلود في معنى آخر، ما زالا يحومان حول الإنسان على مرّ العصور وكرّ الدهور، وما زال يصارعهما، فيصرعانه حيناً، ليصرعهما في حين آخر.. وأما اليوم.. فاللغة ترشح من تناغمٍ جميلٍ بين الحرف والصورة واللون والنغم.. لتتصدر صفحاتِ التواصل الاجتماعي.

وأنت حتى تكون كاتباً يجب أن يكون لديك دائماً ما تريد قوله، بل إنك تكتب لأنك تريد أن تقول.. ففعل الكتابة قسريٌ يحتجز الكاتب بين قضبان البوح، ثم لا يطلقه حتى يفرغ من استجوابه واستنطاقه، وأخذ جميع اعترافاته وخواطره.. وها أنا أكتب.. وها أنا أنفض جعبتي.. أفتح خزائن وجداني.. أنثر درر أفكاري.. وأرشّ الماء على الأنحاء فتخضل وتزهر.. لا أتركه يأسن، أو يتبخّر، فيذهب نفعه هباءً.. والماء إن احتبس في مكانٍ أو حوضٍ تجففه الريح وتبدده، ونحن لا نبصر فعلها، ولا نملك له إيقافاً.................................

فمن كان في يده فسيلة فليغرسها، ومن كان في قلبه حبٌّ فليظهره.. ولتنظر نفسٌ ما قدمت لغدٍ.. والغد.. الغد هو المحك.

يمان

تحليقٌ صغير.. ما قبل الرواية

الأزل.. الأبد.. الأمد.. السرمد.. الأزل الذي لا بداية له.. الأبد الذي لا نهاية له.. الأمد الذي ما بين البداية والنهاية.. والسرمد الذي لا بداية ولا نهاية له.. هو الوقت بكلّ أسمائه، تتناوبنا فيه فصول السنة الأربعة، وتتجاذبنا بتقلباتها وتطرّف أحوالها من قرٍ قارسٍ إلى حرٍ شديدٍ، يداخلهما بالتناوب اعتدالان جميلان.

ويظلّ الرحيل من لحظة الميلاد إلى موعد الموت مستمراً، وبغير توقفٍ، نمارس فيه أطواراً وحالات.. نرقى ببعضها إلى ذرا شامخةٍ حيناً، لنهوي في حين آخر إلى قاعٍ وحضيض، في حركةٍ جيبيةٍ تمثّل إيقاعاً حيوياً خاصاً بكلّ أحدٍ منا، قد لا تكون دورة منتظمة ثابتة يمكن توقعها أو معرفتها، كما تدّعي إحدى النظريات العلمية، التي لم ترقَ إلى الصحة المطلقة، لكنها نشرتْ قلوعاً في بحر التنبؤات المحببة للإنسان.

رصد العلم هذه الدورة الجيبية، وسماه الإيقاع الحيوي، الذي يجعل الإنسان يمتلئ صحةً وعافيةً ويطفح بِشراً وقوةً وحيويةً في فترة الدورة الموجبة، ثم يكون في حالٍ من الضيق والانقباض، يشكو فيها من الإرهاق والخور وتبلد الذهن واضطراب المزاج في فترة الدورة السالبة، ولقد ساعدت الأبحاث في تحديد ثلاث من هذه الدورات تتحكم كلّ منها في حالةٍ من حالات الإنسان، البدنية والعاطفية، والذهنية، يبلغ تردد الدورة البدنية ٢٣ يوماً، والعاطفية ٢٨يوماً، أما الذهنية ٣٣ يوماً، وهي تُحسب من ساعة مولده ليكون لها طوران، إيجابي أعلى، وسلبي أسفل، وعند تقاطع منحنى الدورات مع محور أفقي، تتوضع نقاطٌ حرجةٌ تقابلها أيامٌ حرجة، وعند

تطابق تقاطع نقطتين يتضاعف حرج اليوم، بينما تطابق نقاط تقاطع الدورات الثلاث يُحدث ما يمكن أن يطلق عليه يوم أسود في حياة صاحبها، أما اتفاق قمم الدورات الثلاث، فيعني هذا أنه قد وقع في " برج سعده "!!!. أما المعترضون على هذه النظرية فقد اعتبروا أنه من التعسف الفصل بين حالات الإنسان البدنية والعاطفية والذهنية لوجود علاقة وثيقة بين القدرات البدنية، ونشاط الدماغ، وبين المشاعر والأحاسيس، يؤثر كلّ منهما في الآخر على نحوٍ ما.. إلى غير ذلك من الاعتراضات لسنا بصددها الآن.

أما أنا، فلا أشكّ أبداً أننا دائمو الترحال بين قطبين متطرفين، بين الفرح والحزن، بين النور والظلمة، بين المعرفة والجهل، بين الصحة والمرض... إلى ما هنالك من نقيضين، نعيش حقاً كليهما، وما بين كليهما.

لقد أقسم رب الكون غير مرة بالوقت، وبالزمن، وتقسيماتهما، أَقسم بالعصر، والفجر، والضحى، والليل.. أتراه يلفت نظرنا إلى أهمية العمر؟!! أتراه يخاطب لاوعينا ليتفتح على حقيقة أن حياة الإنسان رحلة ذات بداية ونهاية يتصرف المرء فيها برأسمالٍ خطرٍ هو الأجل المسمى بدءاً ومنتهى؟!!

أجلٌ مسمّى، يتقاطر عاماً إثر عام.. يوماً إثر يوم.. ساعةً إثر ساعة.. بل ربما.. نفَساً إثر نفَس.. ليكون ذلك كله كتتابع حبات رمل البنكام في ساعة رملية، هي العمر كله.

فماذا ترانا فهمنا؟!!!!

سلمى ١٩٩٢

أحقاً ولدنا أحراراً؟!...............

أنا أكاد أشك في ذلك .. يا سيدي عمر بن الخطاب، يا صاحب مقولة " وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً "..

فنحن محكومون منذ الولادة بأشياء قاهرة.. محكومون بالDNA، بالجينات الوراثية التي تنحدر من سلالات أبوينا، مقيدون بأعراف مجتمعاتنا وتقاليدها ولو كانت مهترئة بالية، مهزومون.. نسبياً ربما.. قبل أن نبدأ المضي في دروبنا، بسبب المستوى المتدني للمعيشة عموماً في بلادنا النامية - كما صنفوها وأقنعونا - فاقتنعنا.. أو اقتنع البعض منا أنها كذلك، فهم يحاولون دأباً ترسيخ انحسارنا إلى ما وراء أو ما تحت النمو، وكما صدّقنا ذلك، ورحنا نغطّ في نومٍ عميقٍ لنغدو بذلك بلاداً نائمةً.. لا نامية.

أحقاً ولدنا أحراراً؟!!!

ربما نعم.. ولكن في معنى من المعاني.

سلمى ١٩٩٢.. طفلة الخمسة عشر ربيعاً.. قرر والدها أن تكون لابن عمها.. الذي يكبرها بخمسة عشر عاماً، طفلةٌ ليس لها من أمرها إلا الامتثال لرأي الأب الذي وحده يعرف مصلحتها..

ربما، لو خيّرها أبوها بين هذا الزواج وبين إتمام رحلتها الدراسية لرجح لديها الحصول على الشهادات العلمية أولاً ثم الزواج، لكنه كان أشبه بمن يملي مرسوماً عسكرياً أو تشريعياً يتطلب سرعة التنفيذ دونما اعتراضٍ أو تأخير.. فقد انتظرها ابن العم خمس عشرة سنة، وهو الآن يحطّ أقدامه على عتبة الثلاثين من عمره، وليس من العدل أن يطول انتظاره أكثر من ذلك.. لم تمانع، ولم تقف في وجه رغبة أبيها وقد اتخذ قراره، وقررت بطواعية أن تستسلم لقدرها الذي جاء مبكراً.. لكنها صرّحت بطلبها الوحيد، وشرطها المغلّف بالموافقة، بأن تتقدم للامتحان قبل موعد الزفاف، فقد كانت على أبواب امتحان الشهادة الإعدادية، تكافح بجلدٍ دؤوبٍ لنيلها رغم ظروفها المنزلية الخاصة، فهي الفتاة الوحيدة في المنزل بعد زواج أختها الكبرى، وهي الخادمة المطيعة، غير المأجورة، لأخويها كليهما.. أحضري الطعام، جهزي الشاي، اكوي لنا قمصاننا، رتبي الغرفة ونظفيها، خذي، هاتي، افعلي، إلى آخره......

وتمت الخطوبة وبدأت رحلة إتمام مراسيم الزفاف..

تفتحت أنثى صغيرة في داخلها.. لتكون هي محطّ أنظار الجميع، الفتاة المخطوبة التي رغب بها راغبٌ دون غيرها، يتلألأ في بنصرها الأيمن دليل فوزها باسم رجل.. أو ربما دليل فوزها بقلب رجل.. من الآن فصاعداً ستتلقى هدايا فترة الخطوبة، ستتزين على نحو خاصٍ لرجلٍ يمد يد الامتلاك لقطف زهرة شبابها وصباها.. من الآن ستزهو على أقرانها، ستتمتع بملابس جديدة، وأثاثٍ جديدٍ، ودنيا جديدة..

لم تك تعرف الحب.. لكن قلب ابن عمها العاشق أطال طرق باب قلبها الموصد.

أحياناً يحفزك اهتمام الآخر بك ومبادرته لإسعادك، إلى أن ترد بالمثل، وفق قانونٍ فيزيائيٍ بحت، يقوم بردة فعلٍ مساوية للفعل، دون أن يرافق ذلكَ طقسٌ مشاعري بهيجٌ حيّ، أو نفحاتٌ روحانية نابضة.. وأحياناً تتطاول لامبالاتك لتقف عملاقاً بارد الأحاسيس بليد المشاعر في وجه طوفان الاهتمام..

في الحقيقة لا فرق بين إحجامك عن الآخر وبين انسجامك معه، فكلاهما يكونان سبباً في التهاب عواطفه الصادقة وتوقّدها، في الإحجام عنه تدفعه لمزيد من البذل والجهد لنوال المرتبة التي يتوق إلى نيلها لديك، وفي الانسجام معه تكون كمن يلقي إلى النار حطباً جديداً يساعد على اشتعالها أكثر.

ما الحل إذاً؟!!!

لعله بأن نُترك لأقدارنا، بعفويةٍ دون تزييفٍ أو مبالغةٍ أو إغواء.. حتى لو كان ذلك مؤلماً للطرف الآخر.. علينا أن نسلّم أن جزءاً من أقدارنا لا نملك السيطرة عليه، ولا نملك حياله سوى الرضا والتسليم.

قررت سلمى أن تستسلم للطارئ الجديد.. الطارق الذي أطال طرق باب قلبها الموصد، بعبارته الأثيرة..

" سليمتي.. جميلتي الصغيرة ".. كما كان يحلو له ولها أن يناديها.. كان يتقن فنون الغزل ومناورات العشق...وأزهرت سنون الصبر في روابي ابن العم سامر أحلى زهرات العائلة، وعاشت العائلتان أياماً من الأفراح الملاح المباركة من كلا الطرفين.. واستمرت الأيام شهوراً، تحمل في ثوانيها ودقائقها حالاتٍ شتى، تتراوح بين أقطاب الانفعالات المتنوعة.

حبة رملٍ تعبر مضيق البنكام.. نستردها من بنك الأيام.. تباعاً.. تباعاً.. نطوي بها صفحاتٍ من عمرنا لنفتح صفحاتٍ أخرى..

زوابع بدايات الزواج

حملت سلمى معها من عبق الطفولة والصبا دفتر مذكرات.. دفتراً كانت قد أرادته شيئاً طريفاً مختلفاً جميلاً فاعتنت به على نحوٍ خاص.. غلّفته بورقٍ مذهب، وأحاطته بشريطٍ حريريٍ لمّاعٍ سماوي اللون تقبع عند أحد أطرافه وردة من الريبانً متقنة الصنع تتوسطها خرزة كبيرة زرقاء داكنة..

كانت تضعه بشكلٍ عفويٍ في مكتبة المنزل، ولم تحاول أبدًا أن تخفيه عن الأعين، أو تتستر على ما فيه من خربشاتٍ، ورُسيماتٍ، ومقولات... ولم تكن تدري أنه سيكون سبباً في زوبعةٍ من الشر تعصف بمنزلها، اكتشفه سامر عن طريق الصدفة أثناء بحثه عن كتابٍ يقرأه، فتح الدفتر بفضول شديدٍ، تحدوه غيرة غامضة.. على الصفحة الأولى وجد رسماً لقلوبٍ حمراء، متفاوتة الأشكال، تتوزع بأناقةٍ حول عنوانٍ مميز..

" أسطورتي الصغيرة "

فوجئ بما رأى.. قال لنفسه " كنت أظن أنني أعلم كلّ شيءٍ عنها، وكلّ ما يحيط بها، كنت أظن أنني أملك تاريخها وأمسها لحظةً بلحظة ".. داخلتْه الغيرة بجنونٍ، وعبثت به أشد العبث، فاستيقظ في داخله وحش الأنانية المفرطة..

من منا بلا أسرار..

بلا مساحاتٍ خاصةٍ لا تصل إليها امتدادات الآخرين، لا تطالها عينٌ أو يدٌ أو حدس!! من منا بلا كهفٍ وسراديب لا يدخلهما سواه!! أمكنة خفية عميقة شديدة العمق والخفاء نترك فيها صوراً وكلماتٍ وأفكاراً وأحلاماً لا يعرفها أحد غيرنا مهما بلغت درجة قربه منا وتغلغله فينا.

اشتعل فتيل الغضب من فكرةٍ عابرةٍ، خاطئة ربما، أطاحت بسكينة روحه ووقار سلوكه..

" لا تحتفظ الفتيات بمذكراتهن إلا إذا....... "

تميّز غيظاً من مجرد التفكير بذلك..

" إلا إذا وقعن في الحب "

ترى هل رأت عيناها من حاز لديها مكانةً ما؟!! هل فُتح باب قلبها لغيري؟!! هل خفق قلبها بحبّ أحد؟!!

جُنَّ جنونه.. لماذا تهتم بهذا الدفتر على هذا النحو؟!! لابد أنها قد أنفقت الساعات الطوال في الاعتناء به وزخرفته.. أتراه كُرمى لأحد؟!!

قرّبه من أنفه.. أتراه يحمل عطر أحد؟!!

راح يتصفحه بعصبية ونزق.. صورٌ ملونةٌ لورودٍ وعبارات حبّ، مقتطفات من الشعر الغزلي الجميل، خواطر مؤرخة تحمل تاريخاً محدداً، صباح يوم كذا.. مساء يوم كذا..

صاح بغضبٍ تنامى وكبُر بشرارة غيظ:

- سلمى.. سلمى ما هذا؟؟؟

سارعت الزوجة تلبي نداء زوجها الغاضب:

- ما بك؟!! ما بك؟!!

وما إن رأت دفترها بين يديه حتى سارعت باختطافه متذرعة بملكيتها له:

- إنه لي..

تفاقم غضب سامر واحتد أكثر:

- ولِمَ تحتفظين به حتى الآن؟؟ أم لعله يمثل بالنسبة لك ذكرى عزيزة لا تودين مفارقتها أبداً؟ ما هذه الحروف المقطعة هنا وهناك؟؟ هيا.. هيا أخبريني ما قصة هذا الدفتر بالضبط، ولمنْ......

اقتطع عبارته، ثم أردف قائلاً:

- ولِمَ كلّ هذا الاهتمام؟!!

دهشت سلمى وارتاعت لغضبه الشديد:

- اهدأ قليلاً.. فليس في الأمر ما يستحق كلّ هذا.

- لابد أن أعرف.. أريد أن أعرف.. هيا ولا تخفي عني شيئاً.. هيا.. هيا..

- لِمَ كلّ هذا الغضب، وكأنك قد وقعت على أدلة إدانتي؟!

- اسمعي.. أنا لا يهمني من شأن دفترك هذا شيئاً.. هيا مزّقيه الآن أمامي.

غضبت سلمى:

- بأي حقٍ تطلب هذا؟!!

- أقول لك مزّقيه.. بل آمرك.. ألا يتوجب عليك إطاعة زوجك يا محترمة

- ولكن ليس من حقك.. لماذا؟ لماذا؟!!

- أوتعصين أمري .. وبكلّ وقاحة؟؟؟؟!!

وانهالت ألفاظ الحنق والشتائم، وحاول سامر الإمساك بالدفتر فتفادت سلمى ذلك وسارعت للخروج من الغرفة، لكن قوة الرجل وبطشه تغلبان رقة المرأة وضعفها، فتناوله وشرع بتمزيقه قبل أن تنفجر هي ببكاءٍ مريرٍ، صارخة.. " ليس من حقك.. ليس من حقك "..

هدأت عاصفة الجنون عندما بدأت عاصفة البكاء.. كانت أشلاء الدفتر متناثرة بلا حراكٍ في أرجاء المكان، سلمى متقوقعة

على نفسها فوق الأريكة تنتحب وتلملم شظايا حزنها وانكسارها..

استل سامر سيجارة من علبة سجائره وراح ينفث فيها بقايا غضبٍ ورماد ثورة.

يا لسطوة الماضي عندما يضع فوق عقولنا قفله القديم الصدئ.. ويا لسحره إذا كان يتضوع بجمال ذكرياته عطراً فواحاً.

بكت سلمى كثيراً قبل أن تستعيد رباطة جأشها.. كادت أن تشقى طويلاً بما حصل.. غادر زوجها المنزل تاركاً لها الفرصة لمراجعة حساباتها.. أو ربما لتصفية الحسابات..

في ميزان العمل التجاري يكون الجرد سنوياً لمعرفة الربح والخسارة، في الحياة الزوجية، بل في الحياة العملية لابد من جردٍ آني.. فالخسران واردٌ في كلّ لحظة، كذلك الربح والفوز والفلاح.. وقد ربح من تجاوز عن الأخطاء، وفاز من تغابى، وأفلح من تغاضى.. وليس الطليق كمن دارت به الحَلَقُ، وهل أسوأ من حلقات النكد أو الظن أو الشك!! تتهادى في حادثات الزمان، كأمواج البحر.. تتراوح بين هادئة وعاتية، لكنها لا تتوقف، ولا تهدأ، ولا نهاية لتدافعها أبداً.

لملمت سلمى آثار زوبعة الجنون والظنون التي أطاحت بسكينة زوجها، وراحت بصمتٍ كسيرٍ لكنه حليمٌ، تضفي لمساتها الحانية في إجراء بعض التعديلات على توضع الأشياء في أمكنتها، حتى وصلت إلى خزانة الأحذية قرب باب الدار، فإذا بها تجد ورقةً مطويةً يرتاح فوقها قلم حبرٍ ناشف، فتحت

الورقة لتقرأ حبّاً تعرفه حق المعرفة.. كلمات قليلة جعلتها تغرق في انفعالاتٍ تشبه الدوامة..............

" حبيبتي سليمى.. أنا أحبك بجنون "..

تبسمت.. ودمعت عيناها.. ضحكت.. وبكت.. واعترتها مشاعر متقلبة متناقضة، فجراحها لم تزل فوارة، وتعقلها الشديد لم يخفف وهج الألم ولم يبرّد حرّ احتراقها بنار الغضب.. دارت بها دوامةٌ مخيفةٌ، كادت أن تودي بتوازنها العقلي بعد أن أودت بتوازنها الشعوري، كفكفت دمعها وهي تمسك بالقلم المسجى قرب الكلمات التي تداوي مثلما تجرح، والتي تقتل مثلما تحيي، أرادت أن تطمئنه بنفس الطريقة.. كتبت تحت كلماته..

" أنت حبيبي الوحيد.. الأول والأخير "..

أعادت الورقة كما كانت، متعمدة أن تجعله يظن للحظات أنها لم تكتشفها..

وكان لابد من جلسة عتاب المحبين.. فالعتاب صابون القلوب ينظف ما يعلق بها من درن الأسى والأذى.. والماء هو الحبّ.. الحبّ الحقيقي.. وعلى ندرته.. إلا أنه في قلب سامر قمة شاهقة لا تتطاول إليها الأعين، وغور سحيقٌ لا يُدرَك قاعه، ومنجمٌ للروائع والمبادرات والمشاعر لا يعرف قيمته أدهى المنقبين.

ولأن الحب في قلب سامر أسطوري الحضور بلا منازع، تسللت الكلمات إلى روع سلمى لتطفئ لهبه، وتوالت حروفه مفعمةً بالحنان والاعتذار الصادق..

الكلمات النابعة من صميم القلب تداوينا، وتصير بلسماً يشفي الجراح، شرط أن نثق بها.. إلا أن الثقة هي مربط الفرس، إذ ليس من السهل عليك أبداً أن تمنح الثقة، وأن تؤمن، وأن تصدّق.

بعد تلك الحادثة العصيبة، الشائكة على نحوٍ كبير، قرر سامر أن يكسر تلك السلسلة الوراثية من المعامِلة الذَكورية، من التربية الخاطئة التي يتوارثوها أباً عن جد.. قرر أن تتوقف هنا عنده.. وأن يكون هو " المنْصِف "، والمنَصّف الفاصل بين حقبتين.. ما قبل وما بعد.. ما كان جده لأبيه يعامل جدته بإنصافٍ غالباً، وسار أبوه على خطاه فكان لا يتوانى عن إيذاء والدته أمام الناس إن أثارت حفيظته، كان يرقب طريقة تعامل أبيه مع أمه أحياناً بعنفٍ وازدراء فيتألم لألمها ويشقى بشقائها، ومع طول التلقي انغرست هذه الطريقة في لاوعيه فكان في بداية زواجه يتصرف تلقائياً بنفس الأسلوب ثم يتراجع مدركاً فداحة تصرفاته..

هو لن يقبل أن يكون مثل أولئك الذين قالوا هكذا وجدنا آباءنا وإنا على آثارهم لمقتدون.

المشاكل تحدث في كل مكان وفي كل وقت، وتبقى طريقة تفاعلنا معها هي ما يحدد دورها فإما أن يفاقمها ويجعلها ساطوراً يقطّع أوصال الحياة الزوجية، أو يتركها رشة ملح

نتذوق بها طعم أيام العمر المشترك فنوازن عناصره ونعدّل مزاجه.. بوعيٍ حقيقيٍ وإرادةٍ صلبةٍ قرر زوجها أن يكون نهاية عهود ظلمٍ وبدايةً إنصاف، وهو الرجل المثقف الذي تتخذ ثقافته دوراً فعالاً في إصلاح عيوب نفسه وعيوب العيش في هذه الحياة .. أدرك تماماً أن أغلب الانكسارات تنشأ من طريقة رد الفعل، وأن مهارة " زر الإيقاف " إن أُحسن استخدامها تكون طوق نجاة تنقذ الزوجين من تلاطم أمواج الخصام والنكد.

هدية القدر

في بعض الحالات يتأخر الإنجاب لدى السيدات الصغيرات إلى أن تدرك سن الخصوبة الخاص بها، في الثامنة عشر من عمرها أو عندما تبلغ العشرين.. ويا لها من فرصةٍ ذهبيةٍ قدّمتها لها الأقدار على طبقٍ من ذهب.. ها هي أعوام ضعف الخصوبة الإنجابية لديها تعيّنها على تأخير مهمة الأمومة إلى ما بعد الحصول على الشهادة الثانوية.. لذا فقد قررت أن تكمل دراستها، وهي العاشقة للعلم والثقافة.

كان النجاح في الشهادة الثانوية أضخم وأهم مشاريعها في تلك الفترة، دون أن يُخلّ ذلك بمنظومة عناصر حياتها والمكونة من بيتها وزوجها وعائلات أقربائها المحيطين بهما، و.. وذاتها.. نعم ذاتها، فهي وبالرغم من حداثة سنها تملك ذاتاً مختلفةً، كياناً ذا خصوصيةٍ مختلفة..

كانت رغم صغر سنها تعترف اعترافاً حقيقياً بذاتها، تمنحها اهتماماً واعياً، والاعتراف بالذات مؤشرٌ للصحة النفسية وهو الخطوة الأولى على طريق صياغتها على أكمل وجه، أوليست المخلوق الذي أوجده الله في أحسن تقويم ليكون الخليفة!! لذا فهي ترى أن من واجبها أن تجيد حمل الأمانة..

كانت ترى نفسها.. سلمى المرأة المتعلمة، المثقفة، الناضجة فكراً وشعوراً وسلوكاً، ولم تغفل أبداً عن سلمى الأنثى، ويا لها

من معادلةٍ تحتاج إلى توازنٍ حقيقيٍ كي تكون كل ذلك في آنٍ معاً.

بالعلم والثقافة والتماس النضج تكون المرأة المتوازنة، وبرعاية الأنوثة تكون الأنثى.

وإذا كان الجمال صنو الأنوثة، إلا أنه ليس العامل الوحيد الأوحد، فالرقة واللطف والعذوبة والحياء الفطري والتودد المحبب والعطاء، عوامل حساسة وهامة في رفد مستوى الأنوثة ورفعه إلى أعلى مستوى، وهي إذ تملك نصيباً وافراً من الجمال الفطري قررت ألا تقف عند حدوده مكتوفة اليدين، وراحت تتلمس في آفاق العوامل الأخرى أكبر قدرٍ ممكن.

استغلت سلمى هذه الفرصة الذهبية فتقدّمت لامتحان الشهادة الثانوية لتنجحَ فيه بتفوقٍ أهّلها لدخول الجامعة في أي كلية تشاء، لكنها اختارت فرعَ آداب اللغة العربية، لأن مشروعها القادم الذي يتغلغل في حناياها، كان أن تغدو أديبة ذات شأن، فسجلت في ذلك الفرع وراحت تنتقل بين سنواته الأربع بنجاحٍ مستمر.

وشاءت الأقدار أن تجتمع فرحة تخرجها في عام ١٩٩٩م، بفرحة إنجابها توءمين.

حبة رملٍ أخرى.. تسقط إلى القاع.. عابرة خصر البنكام

توءما الإمبراطورية الصغيرة

حين وضعت الأم طفليها التوءمين، راحت قوائم من الأسماء المقترحة من الأهل والأقارب تنهال على رأسها ورأس زوجها، وكانا يبتسمان لكلِّ اسمٍ مقترح، دون أن تزيد الإجابة على كلمتين لا غير " معقول.. ممكن " لكنهما كانا يبحثان عن شيءٍ مختلفٍ، ويضمران أمراً يخصهما وحدهما.

سلمى تؤمن أن للاسم طاقةً خاصة تؤثر على صاحبه وعلى من حوله، وأن من معناه نصيبٌ لحامله، سلباً كان أو إيجاباً، لذا فقد قررت التريّث والتقصي.

كانت أجمل المناظر التي تخلب لب سلمى وتتركها مشدوهة ثملة، رؤية قطرات الندى فوق أوراق الورد المخملي، ولهذا السبب بالذات كانت ترغب أن تطلق اسم ورد على ابنها، واسم قطر الندى على ابنتها، لكنها آثرت أن تسميهما باسمين يبدأان بحرف السين تنفيذاً لرغبة زوجها في تكوين إمبراطورية **"س"..**

كانت الخيارات لديهما عديدة، فاسم سها وسهيل، اسمين لنجمين من نجوم السماء، وجميل أن تتفاءل بهما ليكون ولداها نجمين لامعين في سماء الحياة يشعّ نورهما المستقبلي في محيط العائلة أو ربما في مدى المدينة أو الوطن.. فكرت باسم سكينة وسلام، وهما الحالتان الأهنأ والأرغد في خضم عالمٍ مشحونٍ بالصراعات والتنافس والتوجس.. وما أروع أنَّ

تعايش السكينة والسلام في كلّ شؤون حياتك، كذلك اسمَي سمر وسمير يرمزان إلى الحديث المؤنس في ليالي السهر الجميل مع أحبة أو أقرباء أو أصدقاء، والذي يوحي بحميمية الأواصر الطيبة فيبهج الروح ويبدد الوحشة.

احتارت واحتار زوجها وهما يبحثان عن كمال الإمبراطورية وتتويجها بأجمل الأسماء..

أخيراً وقع الاختيار على اسمين من عائلة الزهور الجميلة.. سوسن وسمار، وهل أجمل من رائحة الزهر تعبق بالمكان وتعلق زمناً بذاكرة أنوفنا وبالعصب الشمي.

نظر سامر إلى دفتر العائلة وقد تمّ تسجيل ولديهما فيه، فاكتملت فرحته واحتضن زوجته وقال متودداً:

- ها قد شكلنا معاً إمبراطورية " س ".

- يا لها من إمبراطورية صغيرة جداً..

- سليمتي.. تقاس الممالك بما تحتويه من حب بين أفرادها.. ولعلي أجزم فخوراً واثقاً، أن الحب في مملكتي الصغيرة هذه لمن أعظم هبات السماء لنا جميعاً.

هزّت رأسها موافقةً مبتسمة.. ثم أغمضت عينيها وراحت تحلم.. وتخطط.. لكي تبدأ.

نشأ التوءمان في الأسرة الصغيرة الهانئة، محاطين بدوائر أسرية أكبر من الأقرباء، وكانت مساهمة الجدات فعالة في أول

الأمر رفداً للأم وعوناً لها في الاهتمام بهما أيما اهتمام.. وفي تنشئتهما على وجه أفضل، أما سلمى فكانت اللولب المحوري في هذه القضية، أقول قضية وأعنيها تماماً لشدة إتقانها في الإمساك بكل الخيوط التي تصنع فرقاً في حياة الأفراد، كما كانت لا تكفّ أبداً عن اقتطاع حصتها الخاصة من الوقت، لتملأه بما يمتعها وينمّيها شخصياً على أكثر من صعيد.. لم تنسَ أبداً في خضم المشاغل الكثيرة والمسؤوليات الجمة أن تكون ذاتها، بل على العكس تماماً.. كانت تعتبر كل كسبٍ لها وكل زيادة في الخبرة والمهارات هو كسب لعائلتها الصغيرة.

كانت تكتب الكثير من الخواطر والقصص وتجمع كل إنتاجها الأدبي في مخطوطات خاصة، تقرأ ما تكتبه أولاً بأول أمام أفراد العائلة، وتستجيب لتعليقاتهم المفيدة ونقدهم المشفوع بتذوقٍ وتلقٍ راقيَين .. وكانت تحلم دائماً بذلك اليوم الذي تتحولُ فيه مخطوطاتها إلى كتب مطبوعةٍ تحتل رفوف مكتبات العامة والخاصة.

والحلم أول قطرات الغيث......

حبات رملٍ أخرى تتهاوى.. تغادر اللحظة الماضية.. وتنسل بهدوءٍ عبر مضيق البنكام.

نكبر فجأة.. وتتساقط عنا أوراق ربيع الطفولة وصيفها كما تتساقط أوراق الخريف، تذروها معاناة النضج، لتجعل أغصاننا الجرداء على أهبة استقبال الغيث والخير وذرات الثلج...

اجعله يوماً عالمياً

بعد أعوامٍ طويلةٍ قضتها العائلة في مسيرٍ حتمي مبرمجٍ، يقوم فيه كلٌّ منهم بدورٍ تتمازج وتتناوب وتتناغم فيه أحياناً مشيئة الأقدار مع رغائبٍ وإرادات ومبادرات.. كما تتنافر وتتباعد وتتناقض في رغائب وإرادات ومبادرات في أحيان أخرى.

اقترب سمار من أمه متودداً، يبحث عن مدخل لحديثه وهو يلاطفها بالقبلات ويرشوها بالثناء والامتداح، قالت له وقد أدركت مكره الجميل:

- من الآخر سمار.. قل لي ماذا تريد؟!

- أماه.. نحن الآن في عام ٢٠١٥، وبعد أسبوع يحين عيد ميلادي السادس عشر، أريد إقامة حفل صغير أدعو فيه ثلة من أصدقائي.

- وسوسن؟!! توءمك؟!! لو تدعو الأقرباء سيكون الحفل لكما.. أما أصدقاؤك!!!!!!!

حكّ رأسه مرتبكاً.. وتململ في جلسته.. وقال في أسف وتردد:

- لقد وعدت الرفاق بحفلةٍ منزليةٍ من تحت يديك.. هل أدعوهم إلى مقهى في الخارج؟.. أو.. ما رأيك أن أستأذنها أن يكون حفل هذا العام لي.. والعام القادم لها؟

ابتسمت الأم ورفعت كتفيها في دلعٍ وتحببٍ.. تاركة له قرار المحاولة.. وقالت:

- إن وافقت سيكون لك يا بني ما طلبت.. وسأعدّ لك مائدة عامرة بألوان الحلويات والمقبلات والمشهيات.

- حقاً يا أمي؟! يا أعظم أم في الدنيا.. شكراً لك..

- أعدك بذلك.. سأجهز لك حفلة عيد ميلاد رائعة، وسندعو أصدقاءك وأولاد الجيران وبعض الأقرباء.. ولكن....

اتسعت عيناه.. وبلع ريقه.. وقال متوجساً:

- آ آ.. ماذا بعد ولكن هذه؟

- سنجري اتفاقاً صغيراً

- الحفلة مشروطة إذا.!

- ليس كذلك بالضبط.. لكني أريد أن ألفت نظرك إلى أمرٍ هام.. غاية في الأهمية.

اكتست ملامحه بالجدية بعد أن كانت تمور بالفرح المترقب والبهجة الفوارة.. لمست أمه التغيير الحاصل ولم تشأ أن تطفئ وهج سروره بموافقتها:

- صدقني سنصنع يوماً للبهجة مع الرفاق والأصحاب، وستقضي ساعتين من المرح والأكل واللهو... وبعد أن نودّع آخر الزائرين.. سيكون لنا حديثنا المشترك..

وكانت حفلة عيد ميلاد بهيجة.. التقى الجميع بمحبة وصفاء، وكرم، تنوعت هداياهم لصاحب المناسبة كلٌّ حسب ما ارتأى، وسُرّ سمار كثيراً بعطاياهم، وشكرهم ممتناً وجزلاً، ومع توديع آخر زائرٍ سارع إلى حمل الهدايا إلى غرفته وساعد أمه وسوسن أخته في إعادة المنزل إلى وضعه الطبيعي من الترتيب والنظافة، قال وهو يذكر أمه بالاتفاق:

- أماه.. حالما ننتهي من عملنا، سأكون رهن إشارتك لنبدأ بالحديث.. أنا في شوقٍ لذلك.

تساءلت سوسن بفضولٍ وحشريةٍ:

- ما الأمر؟! هل أنا آخر من يعلم؟

- لا عزيزتي.. سيكون حديثاً مشتركاً.. إنه يهمنا جميعاً.

- لابأس.. ومع ذلك فأنا قد علمت باتفاقكما هذا مؤخراً.

- سوسنتي.. أنتما عيناي.. أنت إحداهما وسمار الأخرى.. ولا يزيد حبي لأحدكما عن حبي للآخر قيد شعرة، فلا تبتئسي البتة.. هيا فلنجلس ولنتحادث.

جلس أفراد العائلة كعادتهم الحميمية، كلٌّ في مكانه المعتاد.. بادرت الأم بالحديث وقد طال اشتياق ولديها لسماع ما تريد قوله:

- هل تعرفون أن أول من طرح فكرة الأعوام العالمية هي منظمة الأمم المتحدة وغيرها من المنظمات العالمية الدولية، وأنها تختار مواضيع محددة، ترغب في جلب انتباه الناس إليها في كلّ أنحاء العالم، ليتمّ تدارسها وبحث الشؤون المتعلقة بها، وتطويرها، وتجويد ممارساتها.. الخ...

ابتسم سمار وأضاف فوراً:

- تحضرني الآن أمثلة مثل يوم المياه العالمي في ٢٢آذار، يوم الأغذية العالمي في ١٦ تشرين الأول، يوم المرور العالمي في ٤ أيار، ... وغيرها...

- هذه بعض الأمثلة فعلاً.. وفي مثل هذه الأيام تتضافر جهودٌ عالميةٌ للعمل على تحسين واقعٍ معين، والبحث عن آخر مستجدات قضاياه، بغية إرسائها على أنسب حالٍ.

قال سمار وقد راقه الحديث فآثر أن يستثمره لصالح عرض عضلاته الثقافية الواسعة، على مرآى ومسمع العائلة:

- وقد تُسيّس بعض المواضيع لتكون لصالح الأقوى دائماً في شريعة تشبه شريعة الغاب .

ابتسمت الأم ممتنة وقالت:

- امممم يا سمار.. هذه إضافة قيمة تدل على أنك ذو ثقافة واسعةٍ تفوق عمرك الجسدي، وهذا يسعدني جداً، ولكن ما يهمني من هذه القضية هو أنتما.

دهش سمار وقال:

- أنا؟!!!.. أنا وسوسن؟!!

- نعم.. كما تعلمان، فإن التركيز على أمر ما والتوسع في معرفته، والإلمام بشتى جوانبه، ينقلنا فيه إلّى خانة المهارة.. ولنفرض مثلاً أنك ركزت اهتمامك على إحدى مواهبك أو هواياتك وأشبعتها تمحيصاً وفهماً وممارسةً، ستجد نفسك قد ازددت خبرة وإتقاناً.. وهكذا تصنع الحظوظ الجيدة.. قدّم جهداً متواصلاً تنل ثمرة طيبة بإذن الله.. وعلى قدر همتك تعطى، إياك أن تضع الأمور الهامة تحت رحمة الأمور الأقل أهمية، والحكمة تقول..

" قُدْ سفينتك.. ولا تترك التيار يجرفك إلى حيث يشاء "

كن مختلفاً لتكون مؤهلاً للخروج عن القطيع.. كن أنت، لتكون قادراً على انتزاع نفسك من السلسلة العقيمة التي لا تلد إلا المتشابهين.. الخانعين.. الذين يمسكون برقاب بعضهم خوفاً من لعنة السقوط إلى قمة التفرد.. موحدةٌ ألوانهم، وهي تتعادى لتتماهى، قد يتسابقون إلى البقاء في الحظائر.. إلى ممارسة الفوضى، يتزاحمون على مواقع الفراغ ويتناوبون على حراسة اللاشيء، ثم يصفقون لأكثرهم عبثية وأبرعهم إمّعية.

كانت سلمى تراقب أثناء حديثها لمعة عيون ولديها واتساعهما عند كل فكرة تطرحها، كانت تعرف أنها تتحدث لغةً عالية المستوى، وأن بعض الكلمات قد تخون مفردات أبناء السادسة عشر من العمر، لكنهما كانا يحلّقان معها بجناحيها القويين، تلمّساً لفهم سياق المعنى، وارتياداً لمكاناتٍ ساميةٍ تتمناها لهما، وتماهياً مع حبها الكبير لولديها، ولآيات من الكمال والجمال تتمناها لهما.

التقت نظرات سوسن وسمار وهما يتابعان بشغفٍ حديث الأم المعمّق، في محاولة جادّةٍ لاقتناص أكبر غنيمةٍ ممكنةٍ، وهما من اعتادا على سويةٍ عاليةٍ من الحوار والنقاش.. لكنها في هذه المرة قد رفعت عتبة التحريض والحثّ إلى أعلى مستوى.

قالت في نهاية الحديث:

- لقد صنعت لكما .. وآن الأوان أن تصنعا لنفسيكما اليوم.

حبة رملٍ أخرى تعبر مضيق البنكام.. حبة رمل أخرى.. نستقبل بها قدَراً آتيًا.. قدَراً نعمل على صناعته إلى حدٍ ما.. أو تعديله بنسبةٍ ما.. وعلى اسوأ الأحوال.. نختار الإذعان له بكثيرٍ أو قليلٍ من الرضا أو السخط..

الجارة الجديدة.. الصديقة كارلا

ذات صباح خريفي باهتٍ.. طلب سمار من أمه أن تعدّ له قهوته ليحتسيها قبل ذهابه إلى تدريب الكاراتيه، ارتدى الرداء الخاص بهذه الرياضة وشد رباط حذائه الرياضي، مشّط شعره وتعطّر، ثم نادى:

- أمي.. تأخرت.. أين القهوة؟

وفدت سلمى بصينية مزينةٍ بقطوفٍ من الياسمين، فنجانان من القهوة الساحرة يتوسطانها، وكوبٌ من الماء البارد تحيط به عقدة من الدانتيل الأخضر..

- الله أكبر.. أمي.. ما هذا الجمال، وما هذه الأناقة؟ ما هذه الشاعرية والرومانسية؟ شكراً لك.. كان يكفيني فنجان القهوة السريع.

قدمت له زهرتي ياسمين في طبق فنجانه، وجلسا يحتسيانها معاً.. أرادت أن تداعبه.. فقالت:

- أرأيت يا سمار كم تختلف قهوة الأديب عن قهوة الرياضي.. أنت أيها الرياضي تطلب فيها المنشط الموجود في الكافئين، وتكاد تلتهمها التهاماً كيفما كانت، وكيفما اتفق.. حتى لو كنت وحدك.. بينما يطلب الأديب في القهوة طقوس حبٍّ، تفتح له عوالم الإلهام، وتنسج له عباءة البوح، وتعزف له نوتات الجمال.. القهوة عند الأديب ترجمان عواطف جياشة،

وهواجس خلاقة، تتمازج معه وتمتزج به لتصوغ رحيلاً إلى مكامن الإبداع، وانطلاقاً في آفاق الروح، وقرعاً مستمراً لطبول النشوة الساحرة..

القهوة لدى الأديب صمتٌ وثرثرةٌ يتراقصان على شفة فنجان.. غفوةٌ ويقظةٌ يتجاذبان مزاج عاشق.. تتدافع الذرات السوداء في رشفاتها متوجةً بقوس القشوة، كفرقةٍ من راقصي الباليه يتألقون في مهرجان الحواس ليوقظوا دفء الروح على أنغام الحبّ الخالد..

- رائع وصفك يا أمي، أنت أديبةٌ.. فكيف نجاري ذوقك وإحساسك المرهف!

- أبعد كلّ هذا.. تشرب قهوتك سريعاً ووحيداً وكيفما اتفق؟!!!

- ليتني أتحول مثلك إلى شاعرٍ أو أديبٍ، يملك مهارة العزف بالكلمات، حسناً.. أمي.. ولكنّي ماهرٌ بالعزف على الأورغ، أولا تشهدين لي بذلك؟!

- بلى بُني.. أنا فخورة بك دائماً.

ابتلع سمار قهوته وسط الجمال الأدبي الذي زخمته والدته له، ثم قام إلى مهمته، ولدى الباب وجد جارتهم كارلا تهمّ بطرقه..

- هل أمك بالداخل؟

- نعم.. تفضلي..

نادى بصوتٍ مرتفعٍ:

- أمي.. الجارة كارلا تودّ زيارتك.. ثم التفت إليها مازحاً:

- فلتنعما بالأجواء الشاعرية لقهوة الأديب.. تفضلي إنها بانتظارك.

سارعت سلمى بتحضير فنجان قهوة آخر.. وراحت تلبي رغبة كارلا في معرفة سر الأجواء الشاعرية لقهوة الأديب التي أخبرها عنها ابنها قبل مغادرته.. وراح الحديث يحلّق في تضاعيف العلاقات الإنسانية وما يرافقها من مشاعر وحيثيات، إلى أن وجدت كارلا نفسها تفتح بتلقائيةٍ وادعةٍ الصفحات المغلقة المدفونة في أعماق أعماقها.. قالت وهي تستغرب انكفاءها إلى عزلتها الداخلية، مما أخّر كثيراً قرار ارتباطها برجلٍ ما:

- أخشى أنني ذات مزاجٍ غريب، أنا عموماً أتحاشى الآخرين، أنفر من بعضهم، أستثقلُ الكثيرين منهم، لماذا.. لست أدري؟؟! ما سرّ التنافر بين هالتي وهالاتهم؟!! ما سرّ النفور الذي يتملكني حيال محاولات اقترابهم؟!! لِمَ أُحيط نفسي دائماً بلافتات " ممنوع الاقتراب "؟! لِمَ أُبقي الآخرين خارج حدودي الإقليمية دائماً؟! لماذا يصعب عليّ منحهم تأشيرات سفر إلى عوالمي الخاصة، فأصمّ آذاني عن صوت قرعهم أبواب قلعتي، وأتجاهل الورود التي يلقونها من وراء أسواري حتى تذبل وتموت، ورغم أنني أتردد أحياناً إلى التلصص على وجوههم، إلا أنني أهرب خشية الغرق في بحار عيونهم؟!.

- وكأنه الصراع الدائم بين عقلك وقلبك.

- وهل يطول هذا الصراع يا سلمى؟

- ليس بالضرورة، وليس دائماً، ففي حالة التقائك بمن يملأ العين والقلب والعقل، يكفُّ الصراع، ويتحوّل إلى رحيلٍ عذبٍ في عوالم الحبّ.

- أجيبيني.. من هو الأصلح في اتخاذ قرار الارتباط.. العقل أم القلب؟!

- برأيي أن العقل يسنّ القرار.. وأن القلب هو الذي يوقّع عليه بجملة " مع الموافقة ".

- أو لا يحدث العكس أحياناً؟!

- إن اتخاذ القرار عادةَ عمليةٌ عقلانية، تعتمد على وقائع مدروسة وأسباب متخذة ودواعي منطقية، فإذا تجرأ القلب وبادر إلى اتخاذ هذه الخطوة، فهي المغامرة في عوالم المجهول قولاً واحداً، وكثيراً ما يتبرأ العقل من نتائجها، إذا كانت كارثية، أو على أقل تقديرٍ محبطة وفاشلة.

هزّت كارلا رأسها موافقة ومستسلمة لأفكار تتقاذفها، لاحظت سلمى شرودها في طيات الحديث واستغراقها في رحلة داخلية إلى قاعها المخيف، فاستأذنت لبعض شأنها وغادرت المجلس تاركة الجارة الصديقة في عراكٍ خاصٍ تنفرد به مع ذاتها.. وسبرٍ كشّافٍ لأغوارها الهاربة دائماً..

فزعت كارلا من كثرة من تحتل أسماؤهم مواقع حب من قلبها.. من كثرة الأشخاص الذين تحبهم.. تذكرت أيهم رفيق أخيها الذي لا تحتفظ له في ذاكرتها إلا بصورة عينين تحدقان بها.. تذكرت جوان.. مارفي.. إميل، أقرباؤها الذين كانت تأنس بهم وبجلساتهم.. أما شيفال ابن الجيران الذي كان يتباهى بقامته الفارعة وهو يتحدث إليها بفوقية الشاب المغرور.. بيسال.. آزاد.. مراد زملاؤها الجامعيين وقد أمضت معهم سني الدراسة الأربع في علاقة زمالة أخوية راقية.. بعد ذلك استلمت وظيفتها فكان زملاؤها في العمل ماهر.. كامل.. دانييل قد احتلوا في قلبها مكانة خاصة وعظيمة.. هؤلاء.. وغيرهم.. أشخاص مروا في حياتها كقناديل في عتمة ليل، مروا بائتلافٍ حقيقي بريءٍ، فلم تتلوث بهم.. كانت خطوطها الحمراء العريضة تُمسك بأيديهم بعيداً عن الاقتراب منها، وكأنها تقطن البرج العاجي وتطلّ منه على مساحاتهم، أو كأنهم يمتطون صهوة جواد مجنح أسطوري يطير بهم فوق غاباتها المجهولة البكر دون أن تلامس حوافره ترابها البارد.. تدافعت الأسماء الكثيرة في ذاكرتها وشاغبت بادعاءات الأحقية والأولوية.. هي ما تزال تحبهم.. دون أن تتلوث، يتضوع عطر النظافة من ذرات كيانها المقفل على لا أحد... أو على كل أحد.. مفزعة حقيقة أنها مسكونة بكل هؤلاء، دون أن يكون لها حبيبها الخاص.. أدركت أنها ليست محبوبة أحد، حضورها لا يعني لأحدٍ شيئاً كغيابها، ووجودها كعدمه عند الجميع.. لا تسكن أحداً، ولا يشتاق لها أحد.. تساءلت.. لماذا؟؟ هل السر في كونها متمردة تأبى قيود الأسر والامتلاك؟ هل هي جامحة ناشز ترفض التبعية والارتهان؟ هل تجري في عروقها دماء خيول برية شرسة يصعب ترويضها؟ هل يسكنها حارسٌ

عملاقٌ بشعٌ يرعب من يتجاسر على الاقتراب من حدائقها النائمة؟ هل ترصدها تعويذة سحرٍ أسود تسد عليها منافذ وطرق المحبين والراغبين؟ هل يقبع في عقلها الباطن حدثٌ غابرٌ أحكم إغلاق القضبان حول قلبها وجعلها تخاف الخوض في أي علاقةٍ خاصة.. ما بالها؟! كلما اقتربت من الآخر ازدادت بعداً عنه وتجاهلاً له، يحكمها في ذلك الزمان والمكان، تواجدهما معاً لفترةٍ تطول أو تقصر تُجفِل روحها منه فتنأى وتنفر وتمعن في الهروب، القرب الطويل يكشف لها خفايا وزوايا تقطع عليها سبل التقبل وتؤكد لها استحالة الانتماء له والانضواء تحت اسمه.. آه.. كم حاولت تهدئة نفورها، وترويض جموحها، ومصانعة نشوزها.. آهٍ كم حاولت أن تصنع من حبها العارم ومشاعرها الفياضة مركباً يقاوم هياج الاستغناء، فيستحيل بين يديها زورقاً ورقياً سرعان ما تبلله الأمواج لتلفظه شيئاً صريعاً.. مجرد شيء لا معالم له..

لقد تسرّب الصبا والشباب من بين أصابعها وهي تماطل في اتخاذ قرار الارتباط.. ظلّت تؤجله إلى حين يعصف بكيانها تسونامي يجبرها على الرضوخ لقدرٍ كارثي.. لكنه لم يأت أبداً.. ظلّت تنتظره دون أن تفتح قلبها لأي طارقٍ.. ظلّت تحلم به وهي تداري خوفاً خفياً وقلقاً غامضاً.. واليوم وقد تجاوزت مشارف الأربعين.. راحت تنظر إلى الوراء خلسةً لتجد في حصاد السنين تجاعيد خطّها الدهر فوق ملامحها.. صحيح أنها قد حافظت على حالتها البدنية من رشاقةٍ وأناقةٍ ولياقة.. إلا أن العمر المار بجحافل ليله ونهاره تسرّب تاركاً بصماته على جدران حياتها.

عادت سلمى محملةً بقطع الحلوى المعدّة في منزلها، ولاحظت جمود ملامح جارتها وكأنها وقعت على سرٍ ما، سألتها بحميميةٍ:

- أين وصل بك الغوص؟

- سلمى.. لعلي كنت أخاف أن أرتبط برجل مستبدٍ، متعسفٍ، يقهر أنوثتي ويتعسف في تحكمه بحياتي كما كان يفعل أبي مع أمي، الذي كان أشبه بالسجان.. رحمه الله، ووالدتي، رحمها الله أيضاً، كانت تعاني معه بصمتٍ خنوع.

- عزيزتي كارلا.. أنا أكاد أجزم أن الاستبداد طبيعة بشرية عامة، كلنا يستبد بمن هو أضعف منه، أو دونه عمراً، أو بمن تحت كنفه، أو ألين منه عوداً.. دون استثناء.. يستبد الرجل بالمرأة، ابنة.. أختاً.. زوجاً.. أو حتى أماً.. لماذا؟**!** لأنه الأقوى.. يستبد الأبوان بأبنائهما كأنهم أملاك شخصية.. إلا من رحم ربي.. يستبد الأخ الأكبر أو الأخت الكبرى بمن هم دونه بحجة أنه أو أنها أنضج وأعلم وأسن.. يستبد صاحب العمل بعماله بسبب ارتهانهم للأجر المدفوع مقابل الجهد.. يستبد المدير بموظفيه بدعوى المهام المطلوب إنجازها.. صراعنا مع الاستبداد أزلي.. يبدأ منذ الولادة.. فأنت أنى التقيت بآخر، أيَّ آخر صدقيني، فقد باشرتِ مهمة الدفاع ضد استبداده، ودخلت حلبة الصراع.. حتى أولئك الذين يقدمون لك حباً، إنما يهدونك في طيات مجاملاتهم مقدمات استبداد.. يناورون ويراوغون ليلقوا بك في غيابت جبٍ تخرجين منه إلى عبودية ما.

- فهل من الحقيقة أن الرجل يحشد كل أساليب التزوير ليحصل على جواز سفرٍ يسمح له بالدخول إلى عالم حواء؟! فإذا أيقن أنه قد حصلً عليه، راح يطرق المعابر الحدودية لعوالم أخرى؟! هل من الحقيقة أنه يتقن كلّ فنون الغزو ليجتاح حصون وقلاع حواء، فإذا تيقّن من سقوط القلعة راح يحاول اقتحام قلعة أخرى؟! هل من الحقيقة أن الرجل بشكل عام هو رجل بدايات فقط؟! وأن الاستمرار بالنسبة إليه ضربٌ من المسؤولية يتخفف منه ما استطاع إلى ذلك سبيلا؟! أو أنه رجل حربٍ لا غير، تزدهيه رغبة إسقاط الحصون، الواحد تلو الآخر، ثم لا يتوقف عن ذلك أبداً؟!.

- لعل بعضهم كذلك، ولكن لا تخلو الدنيا من الرجال بحق.

- فلعلي آثرت الهروب خوفاً من مصادفة ذلك النوع؟!.

- ليس الهروب حلاً.. صدقيني.. الحل المواجهة، أن تكوني قوية، بما يكفي لتصدي هجمات الطبيعة البشرية، كوني ممتلئةً بالحكمة لتتفادي أشواكهم ونبالهم، وحاذقة لتناوري في السير بين حفرهم، كوني ذكيةً لتلتقي معهم على نقاط التماس فحسب ودعي تعرجاتهم تبتعد عنك كثيراً.

- آهٍ يا صديقتي.. ليت الأقدار جمعتني بك قبل ذاك.. لعل نصائحك هذه كانت تغير شيئاً في حياتي.

- لكلِّ شيءٍ أوانه يا كارلا.. وهذا أواني.

طقوسٌ للصراع مع الزمن

أطال سمار النظر في جواله وهو يبدو مستغرباً مما يرى، ثم قال لأبيه يستأذنه المشاركة في مناقشة ما وقع عليه من خبر في شابكة النت:

- قرأت للتو حكاية غريبة تحكي عن أحد الطقوس الغريبة التي يحلو لأحدهم أن يمارسها بين الحين والآخر.. يقول صاحب الحكاية:

" في نهاية كل فصلٍ من فصول السنة، أعمد إلى ساعات المنزل فأعطّلها، وأدخل ليوم كاملٍ في سباتٍ اختياريٍ مقصود، أقترف في هذه الأربع وعشرين ساعةً، مدةً ماً، مغمضاً، مسترخياً، هارباً.. لا أتنفس سوى ذرات أكسجين الهواء، لا أسمح لأي شيء باختراقي.. ما دمت أتنفس كل شيءٍ في باقي الأيام، وما دمت أتغلغل في الأشياء كما أدعها تتغلغل في كياني، نتمازج لأكونها وتكونني، فأتعب وأزداد رهقاً وتقصم ظهري أحياناً قشةٌ ضئيلةٌ وريشة صغيرة.. وأمارس بباقي الوقت متعة العيش ارتجالاً، أتذوق فيها طعم الفوضى ونكهة العبث.. يروقني الوقت المستغرق بلا شيء.. بلا هدف.. يخيّل إليّ أنني أغتال الزمن وأقهره بذلك، أنني أبتلعه فأصير ساتورن بنكهة انتقام.. أستبيح ساعات يومي، وأهزأ من قبضتها الساخرة، أتحدى مرورها بتوقفٍ متعمّد، بلى، في هذا اليوم أنا أتغلب على الزمن، وأشعر بنشوة

الانتصار والتمرد.. أتوقف عن صنع أي شيء، ولكن.. لا أطيل التوقف ".

أطرق الأب وهو يصغي لسمار باهتمام، في محاولة منه لتلمس مدى انفعال ابنه وتقبله بما روى.. قال ليضع النقاط على الحروف من وجهة نظره:

- أنا أرى في طقسه الغريب هذا، متنفساً لغليان روحه القلقة، وصمام أمان لتفاعلاته الوجدانية.. سأذكر لك طقساً جميلاً يقارب حصيلة وهدف ما يرومه صاحب القصة من طقسه.. إن الهروب إلى الطبيعة والاندماج فيها، بين الفينة والأخرى، يعيد توازن النفس ويجدد عزيمتها، فإن تعذر الذهاب إليها لمشقة أو لكلفةٍ سفرٍ باهظتين، فيمكن اصطناع أجزاءٍ وأكوانٍ منها، قريبةٍ داخل المنزل .. مثلاً.. راقب نبتة صغيرة في أصيص صغيرٍ تترعرع أمام ناظريك، أو المس بأناملك شغوفاً، أوراق وردةٍ مخملية، وتشمم عطرها، استلق فوق عشبٍ نضرٍ ومرجٍ سندسي، وربما على رمالٍ ذهبيةٍ ساخنة تشعرك بالالتصاق بالأم الأرض، قف حافياً في جدول ماء صغيرٍ لا يتجاوز ماؤه كاحلك، ودعه ينساب بين أصابع قدميك بخفةٍ ورشاقةٍ تسحب معها أثقالك بعيداً.. اجلس مستنداً إلى جذع شجرة وارفةٍ واصغِ بتركيزٍ إلى أصوات الطيور التي تعجّ فوق رأسك.. أنصت إلى وقع حبات المطر الغزير فوق نافذة مشرعة، راقب الضباب وهو يحط بثقله الخلبي ليملأ الفراغ بين السماء والأرض فيحجزك عن رؤية ما لا يبعد عنك شيئاً ويوهمك بجثمانه فوق صدرك.. الطبيعة يا سمار تمنحنا السكينة، التي يبحث عنها هذا الرجل.

- أرى أنه يسرق حالة السكينة هذه من بين أنياب الزمن.

- بل إنه يكاد يشبه سيزيف.. لكن الإيمان بُني.. الإيمان ينتشلك من أن تكون سيزيفاً تعيساً يمارس عبثية العمل المكرور دون جدوى، وهو يحمل أو يدحرج إلى أعلى، صخرة ملعونة تعاود السقوط إلى القاع ثانيةً ليعاود رفعها من جديدٍ محكوماً باللامعنى، وبالنشاط عديم الهدف.

- أنا أفهم الإيمان عمل، والعمل دائماً، في سباقٍ محمومٍ مع الوقت.. أيهما يغلب الآخر!!!!

- الفرق، تصنعه نوعية العمل.. إلى بناءٍ أو إلى هدم.. لكن حجر الزاوية في هذه الحياة هو الإيمان والشغف.. فكن شغوفاً بني ودع شغفك يقودك إلى حيث تحيا مبدعاً.

أول الحبّ.. واعترافات سامر

لطالما علّق الجدّان عن أسطورة حب سامر لسلمى، ولطالما أثارت تلك التعليقات رغبة سمار بالذات في معرفة الحكاية من أولها إلى آخرها، لكن حداثة سنه ويفاعته وحياءه منعوه من السؤال المباشر والاكتفاء بتساؤلاتٍ دفينةٍ تمور في داخله بانتظار أوان ثورانها المناسب في العمر المناسب..

وها هي الصداقة التي تجمعه بأبيه اليوم، وقد وضع أقدامه على أولى درجات الشباب، تترك له الباب مواربا ً ليدلف منه إلى مغامرة الخوض في ماضي الأب سامر.. وكان لابد من انتزاع الاعترافات بعد طول انتظارٍ وتلهّفٍ وفضول.. وفي جلسةٍ خاصةٍ جمعت الأب بابنه، حيث راح يسرد حكايته من أولها:

" في عام ١٩٧٧كنتُ في الخامسة عشرة من العمر، حين طلب مني والدي، المضطر للبقاء على رأس عمله، مرافقة والدتي وزوجة عمي إلى المشفى، كانت زوجة عمي في حالة مخاضٍ، قد اقتربت ولادتها دون إمكانية تواجد زوجها، المسافر إلى جانبها، كنت ألبي طلباتهن وأؤدي دوراً بديلاً لدوري الأب والعم الغائبين..

في المساء.. استأذنت للدخول إلى غرفة زوجة عمي في المشفى، لأرى المولودة، ابنة عمي، كانت الوليدة ذات

الساعات القليلة من العمر تتمدد في سرير الطفل المجاور لسرير الأم المنهكة.. نائمةً تطوف على شفتيها ابتسامة عذبة..

سألت أمي:

- ما الاسم الذي اختاروه لها؟

- سلمى.

- اسم جميل.. ما لون عينيها؟ هل فتحتهما؟

- عيناها واسعتان، أنا رأيتهما داكنتين، بينما تقول أمها " إنهما عسليتان ".

- أين شعرها؟ لا أرى سوى زغب خفيف..

- حاجباها شقراوان.. وستكون على ما أعتقد شقراء.. على كلّ حالٍ.. المولود يتقلب كثيراً قبل أن تثبت ملامحه وألوانه.

نظرت إليها طويلاً.. كانت بيضاء ناعمة الملامح.. رقيقة البشرة.. تتوضع على جانبي فمها الصغير شبه غمازتين قلت مبهوراً بهذا المخلوق الضعيف:

- يا الله ما ألطفها!.. كالملاك.. هل يمكنني حملها يا أمي؟

- ليس الآن يا ولدي.. إنها نائمة.. حين تستيقظ وترضع من أمها وتفتح عينيها سأناديك وأدعك تحملها..

اذهب الآن وأحضر لزوجة عمك كأساً من الكوكتيل بالحليب.. يجب أن تتغذى جيداً.

- حاضر يا أمي.. سأحضر لكليكما.. ولن أتأخر بإذن الله ".

وكبرت سلمى ابنة العم أمام عينيّ ساعةً بساعة، ويوماً بيوم، وكبر الحبّ المولود في قلبي لحظة ولادتها ساعة بساعة، ويوماً بيوم.. كبرت الشقراء ذات العينين الخضراوين الداكنتين، وترعرعتْ في مدارج الطفولة طفلةً جميلةً ذات شغبٍ رقيقٍ محبب، تحبّ اللعب بدميتها القماشية أحياناً، وتميل في أغلبٍ الأحيان لركوب دراجة أخيها الهوائية.. لم يكن جمالها جامداً لا روح فيه، بل كان لها من الجاذبية والحلاوة ما يأسر الناظر إليه فيطيل النظر ويمجّد الخالق.. لها رقةٌ طاغيةٌ.. وعند تبسمها تشعّ الغمازتان بعذوبةٍ وسحر، وتتلألأ في ثغرها أسنان مرصوفة بانسيابية رائعة مختبئةً خلف شفتين صغيرتين مكتنزتين.

أصغى سامر بكليته إلى والده، مفتوناً بالتفاصيل، مرتاباً بحقيقة حبٍّ استمر خمسة عشر عاماً محتجزاً في خانة الانتظار، أكمل الأب حديث الذكريات وهو يرى في عينَي ابنه شغفاً حقيقياً:

- أنا رجلٌ كان من قدره أن أدركه الحب في عمرٍ مبكرٍ جداً.. راح يعانق أيامه ويسامر لياليه، وعلى ضفتي نهرٍ العشقٍ وقف طويلاً قبل أن يستقل أحد مراكبه المبحرة في خضم الحياة.

- أبي.. بالله عليك.. أما تباينت مشاعر حبك لها على مدى هذه الأعوام الطويلة؟!! أنت تقول أنك أحببتها لحظة ولادتها، لا بعد

أن صارت صبية شهية واعدة.. بالله عليك أجبني كيف أحببتها رضيعةً، فطفلةً، ففتاة.؟!!

- وكأنك تسأل عن تاريخٍ عمره خمسة عشر عاما .. حبي الأول لها، حبٌ للمولودة حديثاً ذات الساعات والأيام الأوائل من عمرها، كنت أضمها مخلوقاً من بديع صنع الله، فأشهد عظمة الخالق في كل التفاصيل الصغيرة جدّا، التي تنمو وتتمطى لتضع قدماً على أول طريق الحياة.. بعد ذلك صار حبي لطفلةٍ مشاغبةٍ تتدرج في سنين طفولتها الغضة لتفسح لها مكاناً بين الكائنات، ولتقول بلسان حالها.. هآنذا أتيت عالمكم فاحترموا وجودي واقبلوا بي فرداً من أفراد هذا الوجود.. وعند دخولها إلى المدرسة أحببت فيها طفلة الدراسة الابتدائية التي راحت تنتقل من صفٍ لآخر ببراعة وتفوّقٍ على أقرانها، وتميّزت بنشاطاتها المتنوعة في مجالات الإبداع، لتبهرنا جميعاً بشهادات التقدير والتفوق والتميّز التي نالت الكثير منها..

- والآن.. وهنا بيت القصيد.. حين دخلت أمي سلمى مرحلة الإعدادية.. لابد أنها قد بدأت تتحول أمام ناظريك إلى فتاة أحلامك؟

- لم تتوقف عن كونها كذلك منذ اللحظة الأولى، ولكن مرحلة الإعدادية دقّت لي أجراس الدخول إلى فردوسها المنتظر.

- أنا والله لأعجب كيف عايشت حباً متقلباً في أطوارٍ عدة؟ كيف حافظت عليه متوقّداً، أما خبت شعلته؟! أما اعترضته الطارئات؟!

- كان قراري.. قرار العمر بأكمله.. احتضنته بكلّ قواي، وكانت أقسى فترة مرت بي حين ارتحلت لتأدية خدمة العلم العسكرية مدة عامين تقريباً.. لم أعد أستطيع خلالها تتبع أخبارها وملاحقة شؤونها..

- طبعاً.. فقد كنت كظلّها كما أخبرني جدي..

- كانت لفرط نشاطها الحركي كثيراً ما تلحق الأذى بنفسها، فتقع على درجات بيتهم، أو تصطدم بعمودٍ أو حائط، أو تلوي كاحلها وهي تقفز بالحبل، أو تخدش يديها أثناء تسلقها شجرة النارنج لتقطف ثمارها.. كانت شغِبَةً.. عفريتةً.. كثيرة الضجيج.

- كم كان لديك من الجلد والصبر حتى تظلّ مأسوراً لهذا الحب كلّ هذه المدة.

- كان قراري واختياري.

- أبي.. أنا لا أملك جلَدك العظيم هذا.. أنا أكره الانتظار الطويل.. أكره الأمل الذي يجعلني أنتظر غيباً قد لا يأتي، أتصدقني.. أحب اليأس أكثر لأنه يسلمني إلى نتيجة معروفة حاسمة ولو كانت بائسة.. عبارة " قد يحدث " تصيبني بالسأم، قد.. ليست في قاموسي ولا من مفرداتي.. فإما.. أن يحدث الآن أو ما عدت أريده أن يحدث..

- ألهذه الدرجة أنت آنيٌّ.. ومتعجّل؟؟؟؟!!

- لا أطيق انتظار الأشياء كي تبدأ، أنا قد أحتمل أن أشهد حدوثها ببطء، أما أن أكتفي بالتوقع والترقب فلا طاقة لي بذلك.. وبهذا السياق أنا مواعيدي جدُ دقيقة، لا أمنح أحداً فرصة أن يتأخر عليّ أكثر من خمس دقائق، بعدها أتركه ولا أعود إليه أبداً إلا إذا كان السبب قاهراً حقاً.. أنا أتوقّف في منتصف الطريق وأقفل راجعاً لو طال انتظاري لحدوث ما قد يحدث.. أكره قد هذه وأرفضها.. أحذفها من معجم كلماتي.. أكون أو لا أكون.. أما قد أكون فلا تلزمني.. ولا تناسبني.. أمشي في طريقي مادام واضح المراحل، بيّن المعالم، وأغيّره فوراً لو صار ضبابياً.

- لكن الكثير من الأمور تتطلب مرونة عالية في إمضائها.

- حسنٌ.. أضع لها الخطط البديلة، وأُحسنُ تجهيز البدائل، وأمضي.. في كلّ صباح أتفقد جاهزية حواسي، كما يتفقد قائدٌ عسكريٌ الجنود والعتاد.

- حقاً.. أيها المحارب العتيد.. يا لك من..

- لا.. لا أرغب بنعتي بصفة المحارب.. سأغيّر أقوالي إذاً.. أتفقّد جاهزية حواسي كما يتفقد المسافر سلامة كوابح سيارته، امتلاء خزان وقودها، وتمام لوازم الرحلة.. أو فلنقل كما يتفقد العالِم المخترع تواجد عناصر تجربته وأدواتها.. وإن شئت كما يتفقد المؤلف مصادر بحثه والمراجع التي يعتمد عليها في إغنائه.

- أكلّ هذا الذي ذكرت هرباً من صفة المحارب، لكنك قد أصبت وما كنت مخطئاً فالحياة معركة فعلاً.

- أنا أرى أن الحياة تشبه قطعة الكريستال المحجّر الغنية بزخارفها، المعركة والاقتتال، أحد وجوهها، وثمة وجوهٌ أخرى.. كالمتعة واللذة، المعرفة والاكتشاف، المرح واللهو، الفن والإبداع، حتى الابتلاءات والشرور، حتى الآثام والخطايا....

- ذكرتني بصندوق باندورا الأسطورية، ذاك الصندوق المملوء بالأرواح الشريرة التي خرجت منه لتملأ العالم بالشرور، بسبب فضول باندورا القاتل الذي استبد بها، وجعلها تخون أمانة حفظه دون فتحه..

- الفضول.. هذا هو الحد الفاصل بين وجهين، والمؤدي بدوره إلى كليهما معاً.. فضول المعرفة والاكتشاف دفع باندورا لفتح الصندوق المؤتمنة على عدم فتحه، ليتداخل الخير والشر، ليصير للأشياء حدّان أو وجهان، أو لتصير الأشياء سلاحاً ذا حدين، فيقترفها الطيبون والأشرار، الصالحون والفاسدون لتصطبغ بهم وبألوانهم.

- طبعاً.. فحتى هؤلاء وهؤلاء من عناصر الحياة ووجوهها..

بنك الأيام

في مساء يوم ٢٠١٦/٧/٧ انتهى ضجيج عيد زواجها في عامه الرابع والعشرين، وبدأت بالتلاشي آثاره المميزة التي تضفي مزيداً من البهجة على أيامها..

بالتدريج راحت تعود إلى خضم إيقاع حياتها الاعتيادي..

حملت هدية هذا العام وراحت تبحث لها عن مكان بين الهدايا السنوية التي تتلقاها من زوجها.

لقد جهز لها زوجها ركناً خاصاً في زاوية صالة الجلوس في منزلهما الجديد الذي انتقلا إليه منذ بضع سنين، كان الركن عبارة عن مجموعة من الرفوف تتفاوت في طولها وعرضها وفي طريقة توضعها وفي قربها وبعدها عن الموقد الحجري الذي يتصدر أحد جدران الصالة.. وكما في كلّ مرةٍ، كانت تعيد ترتيب هداياها.. أيقونات الحب المبجل.. بطريقة مختلفة جديدة، لتضيف إليها الأيقونة الجديدة..

اليوم هديتها " بنكام ".. الساعة الرملية.. بنكامٌ خشبيٌ مرصعٌ بعروقٍ برونزية..

كلّ هداياها أثيرةٌ.. معتنى بها إلى أقصى حد..

كانت تحتفظ بكل هدايا أعياد زواجها.. المميزة منها والعادية.. الأولى كانت أكثرها إثارة وأغلاها ثمناً.. ساعة بندول جدارية

كبيرة جداً.. وضعتها في ركنٍ جميلٍ من غرفة الجلوس، تجلس قبالتها كلما أنهكها التعب من الأعمال المنزلية، ترقب حركتها النواسية من هنا إلى هناك، تفكر في حيز النوسان الذي يتأرجح خلاله رقاصها المعدني الطويل المذهب يمنة ويسرة.. هداياه الأخرى....

ساعة يدٍ مذهبة.. ساعة الكترونية تضبط التاريخ ودرجة الحرارة وتعمل كمنبه لطيفٍ بإيقاعٍ سيمفونيٍ رائع.. ساعة حائطية يحتل مكان كل رقم فيها صورة طائر مختلف، يصدح في تمام الساعة صوته حسب نوعه، فمن زقزقة إلى تغريد إلى هديل إلى صفير إلى عندلة إلى هدهدة إلى.. إلى....... دمية ماتريوشكا.. باقة زهور اصطناعية.. مجموعة كوادر متتالية خصصت لتضمّ صوراً شخصية متعددة الأطوار.. كتاب تعليم القراءة السريعة.. تذكرة قضاء فريضة الحج وقد احتفظت بها منذ أعوامٍ ضمن إطار جميل.. سجادة صلاة مزودة بجهاز الكترونيٍ يعلن توقيت كل صلاة بصوتٍ رخيمٍ.. الكف الخزفية.. إلى غير ذلك.

قبل أن ترفع سلمى أيقونة الحبّ الجديدة إلى المكان الذي ارتأت أن تبقيها فيه، وضعتها على الطاولة التي تتوسط غرفة الجلوس، ثم جلست على الأرض أمامها وراحت تتأمل حباتها العابرة في خصر البنكام.

مرت سوسن من أمام أمها في حاجة تقضيها، ثم عادت لتجدها غارقة في تأملاتٍ عميقة، غير آبهةٍ بمن يتحرك حولها.. أرادت مداعبتها:

- ماما.. نحن هنا.. أين وصلت في رحيلك؟

انتبهت الأم وتبسمت، ومن دون أن ترفع عينيها عن البنكام سألت:

- بنكام؟!!.. لعلها كلمة منحوتة من بنك الأيام؟!!.. مثل كلمة إنسالي المنحوتة من إنسان آلي؟!!

- أظنها كذلك أمي.

- ثمة تشابه بينهما، أليس كذلك؟.. فالساعة الرملية بنكام تتوارد فيها حبات الرمل حبة إثر حبة في ذلك المضيق المحدد، كما الأيام من بنك الأيام تمر يوماً في إثر يوم في مسمى يدعى العمر..

- بلى، يتشابهان في ذلك، لكنك في البنك تستطيعين السحب من رصيدك المالي كما تقدرين على الإيداع فيه.

- آ.. فعلاً.. ولكن.. ثمة أمورٌ ومواقف حياتية تضيف إلى رصيد العمر أياماً.. حالاتٌ تجعلنا نعيش العمر عمرين أو أكثر، حين نحِبّ ونُحَبّ تتضاعف سنوات عمرنا، حين نفعل الخير للآخرين نضيف إلى رصيدنا أعواماً، حين نصل رحماً ونعين عاجزاً ونبدع فناً، حين نعطي بسخاء دون انتظار المقابل، حين ننسى آلامنا وندفن أحقادنا، حين ننجز عملاً لم يقم به أو بمثله غيرنا، حين نخترع أو نكتشف ما يجر للناس نفعاً، حين نعزف لحناً، أو نرسم لوحةً، أو نكتب شعراً، حين نزور الطبيعة الخلابة و نتحد بكائناتها الجميلة ونصغي إلى

أصواتها، حين نعيش بشغفٍ كلّ ما هو سامٍ وراق، ونحنّ بصدقٍ إلى كلّ ما هو أليفٌ ومحبب.

- يا له من تحليلٍ راقٍ يا أماه..

- لقد أوحت لي هذه الساعة الرملية بفكرة رائعة..

- ما هي؟

ابتسمت الأم مجدداً:

- ستكون مفاجأة مذهلة.. لكلّ من حولنا.. ألديك مكان للسر؟؟

- بالطبع أمي.. سيكون سرك في أعمق بئرٍ لدي.

- لقد أوحت لي هذه الساعة بكتابة رواية تحمل اسم بنك الأيام.

- لابد أنها ستكون رواية رائعة، فأنا أعرف قلمك السيال وأسلوبك الشائق.. هيا يا أمي ولا تترددي أبداً، وسأكون أول المشجعين.

- لقد اتفقنا على أنه سرٌ.. أليس كذلك؟

- حتى على بابا وسمار**؟!**

- في البداية نعم.. سأعمل بصمتٍ إلى أن أصل إلى أواخرها، ثم أخبرهما.

- لك ما تشائين مامي.. اتفقنا.. كم أنا فخورة بك**!!**

- سيكون ذلك أول إنجاز مطبوع لي على الصعيد الأدبي منذ تخرجي، وأتمنى أن تكون الروايةُ مبهرة على مستوى طموحي وأكثر.. إن ما يدفع الأقلام كي تكتب وتبدع فنوناً أدبيةً مختلفةً إنما هو الحب.. تحبّ وطنك فتتغنى بجماله وأمجاده، وتشدو غربتك عنه، فيه أو في البعد عنه، تحبّ نفسك فيحدوك هذا الحبّ إلى شتى أنواع الإبداع لتجيش بمكنوناتها وتدوّن حالاتها، وتحبّ الآخر فتهزج إليه طرباً لتعانقه بكلمات الود والحبّ..

- سيكون لك ذلك بإذن الله، فأنت لديك رصيد ضخم من القراءات، ويداك لا تكادان تخلوان من كتاب.

- سأجتهد في إتقان القراءة السريعة، لأقرأ الكثير مما تضمه مكتبة الأدب من روايات عالمية ومحلية، لابد لي من أن أخوض غمار التجربة متسلحةً بكل أدواتها، عارفة بفنونها، محيطة بآفاقها.

- كعادتك أمي، تخططين لكل شيء.

- طبعاً ومن الآن فصاعداً ولكي أنجز روايتي، سوف أرصد كلّ التفاصيل الصغيرة، التي تكتنف حياة الناس، حياتي وحياة من حولي جاهدة في سبر أغوارهم ومحاولة اللحاق بقوافلهم العابرة، الماضية في دروبٍ شتى..

- ماما ستهتم بتفاصيل قيل وقال، وراح وجاء؟!! إن هذا لا يوافق مزاجك المعهود بالإجمال، وباعتبار الكل دون الأجزاء.

- فعلاً يا بنتي.. فأنا كما تعرفين مولعةً بالاختصار، يكفيني الإيجاز لتوصيف أي أمر، ويروقني التكثيف في شرح أي انفعال، بل أكثر من ذلك، أنا مقلّةٌ في نشر خبرٍ أو إذاعة نبأ، حتى وصّفني من حولي بـ وكالة أنباء سيئة.. لا أهتمّ بالمجاملات الرسمية، ولا أخوض في ثرثراتٍ تافهةٍ مبتذلة.. أنت تعرفينني.. أصمت طويلاً وأنصت إلى الأفواه المتصارعة على حلبة الحديث، مثنى مثنى في خضم لقاءٍ نسائيٍ عديد الأطراف، ولكن.. لابد لي اليوم من أن أخوض غمار الضجيج وألاحق طرائد اليوميات والتفصيلات، لابد أن أعتني بحواسي لتلقط أكبر كمٍ من الإشارات والمفارقات، كي تغنى الرواية بمشاهد متحركةٍ وتضجّ بانعكاسات الواقع.

- لسوف تصبحين امرأة مختلفة عما كنت عليه، سيغيّر اهتمامك الجديد فيك شيئاً أو ربما أشياء.. ألا تظنين معي ذلك؟!

- حبيبتي.. التغيير سمة الأحياء، ولا تبقى على ما هي عليه إلا الأشياء الجامدة.

- ألا تخشين التغيير؟ أنا أخشاه، أخشى أحياناً أن أبدل أسلوبي في ارتداء الملابس، أو أن أترك عادتي في ارتياد طريقٍ معين أثناء عودتي للمنزل.

- جميلٌ ألا يعتاد الإنسان عادة.

- حتى لو كانت عادة حسنة؟!

- بمعنى أن لا يصبح أسيراً لها، فالعبودية مقيتةً (إلا لله) مهما بلغت عظمة ذلك السيد، أحداً أو شيئاً أو فكرةً أو قضيةً أو حتى عُرفاً اجتماعياً.. ما ينبغي لحرية الإنسان أن تكبّل بقيود الارتهان والاتباع.. لقد ذمّ القرآن العظيم أولئك الذين قالوا إنا وجدنا آباءنا هكذا يفعلون، ليدفعهم إلى اتخاذ فعلٍ حرٍّ نابع من قناعةٍ واختيار.. واعلمي حبيبتي أن مطلق الحرية أن يعرف الإنسان أنه رهين ما كسبت يداه هو.. ومطلق الحرية أن يعرف أن التغيير حاصل بيده عندما يغير ما بنفسه، أنا أرى أن الأصوب والأجمل هو أن تُجرّبي من كلّ فنون الحياة ما يغني تجربتك ويصقل شخصيتك ويزيدك ثراءً.

- أظن أني سأحاول.. وسأحتاج إرشاداتك ونصائحك.

ضمّت سلمى ابنتها لتمنحها جرعة حقيقيةً من الحنان والدعم والتحفيز وقالت بمزيد من الحبّ والاهتمام:

- سأكون إلى جانبك دوماً حبيبتي ما أحياني الله.. فانطلقي وخوضي الحياة.

تغلغلت سوسن بين ذراعي أمها ووضعت رأساً مثقلاً بالامتنان فوق صدرها الحنون وقالت:

- يا لك من أم عظيمةٍ أكرمنا الله بها، أعرف الكثير من الأمهات اللواتي لا يمنحن أبناءهن غير الطعام والشراب، وكأن الإنسان مجرد جسد، تمدّه بقوتِ عيشه، أما أنت فقد زرعت في عقولنا وأرواحنا بذور حب الكمال الذي يسمو بالإنسان إلى كلمة الله " كن " والتي جعلت منه خليفةً في

الأرض، جديراً بالخلافة والتمكين مزوداً بكل الطاقات والقدرات المطلوبة.

- تماماً حبيبتي.. وإني لأرجو أن أكون قد أدّيت الأمانة تجاهكما أنت وأخوك على أفضل وجهٍ يرام.

- كيف لا أمي، ها هو سمار يتقلب في آفاق المعرفة وجوانبها دون ملل، لا يترك نصيباً أو نوعاً أو لوناً إلا ويطرق بابها، كذلك أنا، لقد أوقدت في دواخلنا شعلة التوق إلى الكمال لا تنطفئ أبداً.

ابتسمت الأم وهي تتلمس امتنان ابنتها واعترافها بفضلها، وراحت تُغلل أصابعها في خصلات شعر سوسن وتشتمّ عبق الحنان الأسري، وأخلدت بدورها إلى لحظاتٍ من الأُنس والاحتضان.

حبة رملٍ أخرى.. تعبر مضيق البنكام.. نكبر.. ونكبر.. وتتفتح اليقظة على عوالم الحياة لتطوي صفحات الماضي.. ولتجعل ردّات فعلنا أقل انفعالية وصخب.

مشاريع

كان رأس سلمى الجميل لا يكفّ عن التفكير أبداً.. تساءلت في صمتٍ تسمع صوته..

" إذا كان ما نراه في منامنا ينقلب إلى عكسه تماماً في الواقع، وهذا مما يقولون.. فإن رأيت أنك كنت تبكي في الحلم فستفرح، وإن رأيت نفسك أو أحداً من أقربائك أمواتاً فقد كتب لكم عمر جديد، "..أينطبق هذا التأويل على مناماتي، أنا أرى نفسي في حلُم - يتكرر مراراً - أنني أهوي من شاهقٍ، من مكانٍ مرتفعٍ إلى الأرض، من طابقٍ أخيرٍ في بناءٍ شديد العلو، دائماً أهويٍ بسلامٍ ودون أن أصاب بأيِّ أذى.. أتراني أُتقن الصعود في الواقعٍ كما أتقن السقوط في المنام.. أنا أتسلّق إلى قمم آمالي بصبرٍ ودأبٍ وأناة.. أصعد على درجات وعتباتٍ مؤلمةٍ لأرقى بطموحي من مستوى لآخر، ولا أقبل لنفسي الوقوف أو التوقف.. وكأنني أحمل على كاهلي اللافتة المرورية " ممنوع الوقوف أو التوقف" أيقونةً شخصيةً، أو حمالة مفاتيح (ميدالية)، أواصل بها قطع المسافات بين آفاقٍ متلاحقةٍ، لكن هذه الاستمرارية والمواصلة لا تعني لي اللهاث أبداً، ولا تحملني على مطاردة الأشياء بجنون....، أنا أتوق بين الحين والآخر لجلسة سكونٍ أظلّ فيها معبأة بطموحي الهادر، كي أمنحه كموناً متوازناً ينطلق بعده في فضاء التحقيق والتحليق.

هكذا الأشياء العظيمة تبدأ بفكرة.. ولكي نبدأ لا يلزمنا غير اليقين بأننا قادرون على تحويلها من العدم إلى الوجود، وعلى إنجازها وجعلها حقيقيةً وملموسةً، نمضي مع اليقين في طريق الجهد والعمل، ناظرين إلى نهاية الطريق كبوصلة تحدد الاتجاه.. ".

هذه ليست هي المرة الأولى التي تلقي سلمى بنفسها في مسير أفكارها العظيمة، والرواية ليست أولى مشاريعها المميزة، فهي امرأة المشاريع والإنجاز، ومنذ اكتمال وعيها بذاتها ونضج شخصيتها وهي تنهي مشروعاً لتبدأ آخر.. أتراها تذكر تاريخ أول مشروع حقيقي بما تحمله هذه الكلمة من معانٍ وجوانب وحيثيات؟!.. ربما سيتطلب ذلك غوصاً في البعيد من الزمان.. لكنها تتذكر الآن أنها كانت في الصف الرابع حين قررت أن تكون "الأديبة".. وأنها بدأت رحلة التهامٍ حقيقيٍ في عوالم الكتب لمّا تنته بعد.

وعادت بها الذاكرة إلى منعطفات حياتها..

قبيل امتحان الصف التاسع، وقعت عقد أضخم مشروعٍ في العمر.. ألا وهو ارتباطها بابن عمها سامر..

بعد ذلك توالت مشاريعها، التقدم لامتحان الثانوية، التسجيل في الجامعة..

تذكرت يوم عودتها من عيادة الدكتورة وقد علمت بحملها بتوءم، ذكر وأنثى، حيث بدأت الأفكار تدور في رأسها الجميل لتأخذها معها في دوامة الاختيارات، من أين ستبدأ؟!!...

لقد أصبح لديها في ذلك اليوم بالذات، مشروعان اثنان.. مشروعان حقيقيان بكلّ معنى الكلمة، مشروع رجل، ومشروع امرأة.

وبما أن لكلّ مشروع دراساته الخاصة، جدواه، موارده، خططه الثابتة والبديلة، جدوله الزمني، وطرق استثماره، فقد قررت أن تضع لكلٍّ منهما ملفاته الخاصة التي تحصي وتستقصي كلّ ما يتعلق به من معلومات، وهي الآن تعرف تمامًا ما تريد..

تريد صناعة رجل، أيما رجل.. وصناعة امرأة، أيما امرأة..

كانت قد قرأت ذات يومٍ أنه إذا قُدمتْ أطعمة معينة مناسبة لبعض الناس منذ الطفولة، يمكن منحهم، صناعياً، صفاتٍ مميزةٍ معينة، بدنياً وعقلياً، والخبر مشفوعٌ بعلة أن العناصر الكيميائية تؤثر في كلّ فردٍ بطرقٍ مختلفةٍ تبعاً للتركيب النوعي لأغشية أمعائه.. قرأت في الكتب العلمية عن غذاء العقول الذكية وطريقة تدريبها للوصول إلى مستوياتٍ عالية من المهارة والتفاعل.

غاصت في كتب تربية الشخصية الناجحة، وفي كتب صناعة الأرقام الصعبة، بحثت في تجارب الشرق والغرب عن مفاتيح إعداد المميزين والمؤهلين لقيادة أنفسهم والآخرين إلى بر السعادة والتوازن.. طالعت خلاصة المفكرين حول أدوات التفكير وموازين الفلاح وقواعد التميز وقوانين الفوز والانتصار.

وإذا كان الإبداع في أحد معانيه هو توليد الأكثر من الأقل، فها هي تملك اليوم كائنين صغيرين تطمع أن تكون مبدعةً في صناعة كونين منهما، كون رجلٍ رائع، وكون امرأة رائعة.. بل هي تطمع أن يغدو كلّ منهما أُمّةً بنفسه.. أمّة وحده**!!**

تريد أن تصنع أفراداً مميزين في جيلٍ قادمٍ تحمل أمانة صنعه.

اليوم لديها مشروع الرواية.. وهي امرأة المشاريع منقطعة النظير، المرأة الفولاذية ساحرة الإصرار.. وبما أنها قد قررت أن تكتب روايتها، فلسوف تشهد الدنيا ولادة رواية جديدة دون شك.

فتحت دفتراً كبيراً خصصته لكتابة الرواية..

في أول صفحة منه، وفي أعلاها وأوسطها، كتبت اسم الرواية

" بنك الأيام "

وبدأت تكتب.. وقد استرسلت في أفكارها وتأملاتها التي تدفقت كالنبع الغزير..

" في هذه الرواية.. سأستعير حروفي من قبضة مخطوطات النبلاء وأسفار الحكماء وأجدلها مع ضفائر النور لأكتب النقاء والطهر والحب الأبيض.

لن تكون كلماتي لكل من تسوّل له نفسه أن يقترف قراءة التبذل والقذارة، لن تكون لكلّ طامعٍ لنيل اللذة المحرمة بين السطور، لن تكون لكلّ مختالٍ يجرّ

أذيال التشبه والتملق لكتابات المتفحشين، لن تكون حروفي غير ألواحٍ ودُسُرٍ تجري بأعين من علّم الإنسان بالقلم.. القلم الذي أقسم به ربّ العزة، فكيف لا أذوب خجلاً من أن أستخدمه فيما يغضبه!!

تأبى حروفي إلا أن تكون نوراً يهدى لعيونٍ تعشق النور وتعاف الظلمة.. فإلى كلّ من يبحث عن حكايات الليالي الحمراء المشتعلة، وقصص المغامرين فوق أجساد الضحايا، الغارقين حتى القاع في لججٍ محمومة من موبقات الطين.. دعوني اعترف لكم بأنكم لن تجدوا ضالتكم هنا.. أنا لا أنشر قلوعاً إلا لرياحٍ الخير، ولا أفتح نوافذ إلا لأشعة الضياء، ولا أحث الخطا إلا للقاء النبل.. فدعوني على هذا النهج أكمل طريقي.. فإني لن أغادرها.

... بنك الأيام... رواية تدعوك كي تغفر للجميع وتفكّ أغلال روحك وتتركها تنطلق في ملكوت ربها تتلمس فيض أنواره.. لأنك عندما تكتشف القيمة الحقيقية للدنيا سوف تتيقن ألا شيء يستحق أن تحمل لأجله حقداً أو حسداً أو ضغينة.

الأيام.. هذا المفهوم الهلامي الذي يحيط بنا، متخذاً من عناصره إشارات ضغط حيناً، ولمحات انسيابية حيناً آخر.. تترى فيها مواسم الخير.. مواسم لا تنقضي ولا تنتهي أبداً ... مواسم هي نفحاتٌ طيبةٌ، نتعرض لها إذا شئنا، فتتغلغل في كياننا لتنشئنا نشأة أخرى.. ومع كل موسم تكون لنا نشأة

جديدة.. أخرى.. إذا شئنا.. بل في كلّ صباح يومٍ تكون لنا نشأة أخرى.. إذا أردنا.

والنشأة.. إحدى أهمّ الكلمات التي استوقفتني وألهمتني بمعناها البدائي الابتدائي.. فلكل أمرٍ بدايته، ولكلّ حيٍّ نشأته في حيز واحدة الزمن، والتي بالنسبة للأرض هي اليوم، الأربع والعشرون ساعة، بليله ونهاره الدائبين، ولعل لفظة دائبين تناسب الليل والنهار لحركتهما المتراوحة دائماً دون فتورٍ بين الطول والقِصَر على مدى العام..

ولكن.. ويقذف بنا العلم إلى تخوم تساؤلات لا حصر لها.. هل حقاً أن لكلّ كوكب طول يومه الخاص به؟! مما يتناسب مع حجمه وسرعة دورانه حول نفسه وحول النجم، وأن هذه السرعة تتعلّق ببعده عن النجم، فكلما ازداد قرباً ازداد سرعة، وبالتالي قطع المسافة على المدار حول النجم بزمن أقل ".

غاصت في تأملاتها الديناميكية أكثر، أيكون لمدى بعدها عن هدفها والذي يؤثر في وضوح التصور في ذهنها، دورٌ جوهريٌ في سرعة إنجازها له؟!! وبالتالي اختصار حقيقيٌ لأمد انتظار جني المواسم..

لا يهم أن يكون حصاداً أو قطافاً أو دِياساً.. فالعبرة بما نزرع، قمحاً أو ورداً أو عنبا....

المهم ألا نزرع شوكاً..

وحتى لو زرعنا الصبار في الصحراء.. فالجمال لا حدود له ولا وطن.. المهم ألا نزرع الشوك.. أبداً.

عادت إلى تأملاتها الفكرية المرتبطة بنسيج روايتها.. وراحت تكمل:

" للإنسان نفسه، واحدة زمنٍ خاصةٍ به، أورد ذكرها المفكر العربي " ابن عربي" تحت لفظة.. الأنفاس .. النفَس الواحد بمقدار دخوله وخروجه.. النفَس في اللحظة الحاضرة التي نعيشها الآن، والنفَس في اللحظة السابقة التي أضحت ماضياً لا يمكننا العودة إليه مطلقاً، ونفَسٌ رهينٌ بيد الله يُمكّننا منه إذا أراد لنا البقاء.. حسنٌ.. ولكن سرعة التنفس تختلف، وبالتالي عدد الأنفاس، وما يقابلها من ضربات القلب، من شخصٍ لآخر؟ هل هذا ما يجعل لكلّ شخصٍ زمنه الخاص به؟!! هل هذا ما يجعلنا نجد من البشر من هو ذي إيقاعٍ بطيءٍ حين يقوم بأعماله، بينما يلتهم إنسان آخر الحياة التهاماً.. إذا كان الزمن " حاكمًا على المادة " وإذا كانت المواد التي هي كلّ ما له وجود حسيٌ ملموس، ترتبط فيما بينها بعلاقات فيزيائية أو كيميائية، فإننا ندرك بمرور الزمن كلّاً من التأثير المتبادل فيما بينها والتغيير المتلاحق عليها..

إذا.. نحن وقوفٌ في بقعةٍ صغيرةٍ جداً.. بل متحركون.. متحركون في حيزٍ صغيرٍ اسمه الحاضر، نطلّ من إحدى نافذتيه على أمسٍ منصرمٍ.. نحمل

بقاياه عطراً أو حنظلا.. ألقاً أو نزفاً.. وساماً أو وصمة.. ونطلّ من الأخرى على فراغٍ ضبابيٍ لا نرى مداه أو ما فيه، على الإطلاق.. ولكننا نحاول جهدنا في رسم معالم له، بكل ما أوتينا من قدرة على الطموح والآمال، نحلم به أو له، ونحاول صنعه على مبدأ..

" نحاول مُلكاً أو نموت فنُعذرا ".. وقد نراوده اختراقاً عابثاً.. بكل أدوات وفنون التنجيم والتنبؤ ..

ورغم أن كذِبَ المنجمين هي " الحقيقة الكاملة ".. وكذَب المنجمون ولو صدقوا.. أو صدقوا.. لكننا نرتع أحياناً وبلا وعيٍ منا في مراعيهم، نتلمس حبال الوهم المعلقة في حوانيتهم، نستجدي كلماتهم المورفينية لننفيَ عن أنفسنا شيئاً، أو لنؤكد آخر، يحلو لنا الاستماع إليهم أحياناً ولو على سبيل المزاح أو الدعابة أو ملء الفراغ..

اللحظة الحاضرة هي العيش.. ولو كانت ممهورةً بختم الماضي، لا نملك حياله انعتاقاً، كالأسير في يد عدوٍ غاشم، أو كالرقيق عند سيدٍ جلف

اللحظة الآنية هي العيش.. ولو كانت نواة غدٍ أو بذرة مستقبل، لا تتعدى عن كونها مجرد احتمالاتِ حدوثٍ في غيبٍ مطلق

بلى.. إن اللحظة الحالية كالثقب الأسود تبتلع جنون الأمس بأجرام حادثاته، كما تبتلع إرهاصات الغد بأجرام أحلامه، وتختصر في داخلها تفاصيل الهوية الشخصية بعلاماتها الفارقة".

فضفضة

قيل ذات اعتناء واهتمام.. نحن لا نرتب أماكن الأشخاص في قلوبنا، أفعالهم تتولى ذلك.. وها هي المواقف اليومية التي تمنح الآخرين حباً عفوياً لا غاية له، تهتم في ترتيب هذه الأماكن دون تدخلٍ عقلانيٍ منطقيٍ..

اعتادت سلمى فور ذهاب زوجها إلى عمله أن تحتسي قهوة الصباح مع جارتها الصديقة كارلا.. إذ هما يمامتا الشروق المذهب، تستقبلان وجه النهار بدقائق من النكهة الرائعة في حبات البن الطازج المطحون يدوياً.. ويتطاير وشاح البوح فوق أكتافهما في فضفضة حميمية تقارب السرية حيناً، وتحط على تخوم النقاشات الفلسفية حيناً آخر، بينما تبتعدان عن الخوض في شؤون الآخرين وتداول أخبارهم.. قالت كارلا ذات صباح كئيبٍ غائم:

- كنت سيدة الحزن بلا منازع.. كم تربّص الحزن بي في كلّ مفصلٍ من مفاصل حياتي، ليكسر فرحي!!.. كم امتدت يد الأقدار لتضع في طريقي أحجاراً أتعثر بها!!.. وكم.. وكم!!

مات أخي يوم نجاحي في الثانوية، وما تلقّيت تهنئة به قط، فالعزاء أوجب.. وسقطت أمي من أعلى درجات السلم وهي تنظف سقف الغرفة وكُسر حوضها يوم حفل تخرجي، فما عرف به أحدٌ لانشغال الجميع بالعمل الجراحي المعقد الذي أُجري لها.. أخطأت مصففة الشعر وهي تضع لي العدسات

الملونة يوم زفاف أخي، وسببت لي نزيفاً في عيني منعني من التواجد فيه كما يجب.. أصيب والدي بالديسك فقرر اعتزال عمله قبل أن يؤمن لي بيتاً كما فعل لجميع أخوتي قبل ذلك..

- أي مصادفاتٍ قاهرة تلك التي مرّت بك!!

- نعم عزيزتي.. كنت فيما مضى، سيدة الحزن بلا منازع.. لكن رحمة الله كانت تنتشلني من عثراتي تلك، وفي كل مرة، بما حباني به من قدرات التحدي والإصرار.. الآن.. أنا أجد السعادة دائماً في قلبي، مهما اعتراني الحزن وتغشاني الضيق.. السعادة قراري في أن أجعلها أيقونة سلامٍ في قلبي، لا تفارقني، وأنا لم أعد من الناس الذين يهرولون إليها ويركضون خلفها ثم لا يدركونها أبداً.

- إذاً سيكون لك أيما شأنٍ فيما لو ذهبت إلى قرية السعادة.

- قرية السعادة؟!.

- نعم.. قرية السعادة.. القرية التي مر بها عابر سبيل فطالعته المقبرة على أطرافها، ليلفت انتباهه ملاحظاتٌ متشابهةٌ كتبت فوق شواهد القبور.. هذا فلان مات وعمره تسعة أيام، وفلانٌ مات وعمره شهر ويومان، وآخر مات وله من العمر سنتين وستة شهور، وهكذا.. ودفعه الفضول لقراءة المزيد من عبارات الشواهد ليعرف أغلب أعمار أهل القرية، لكنه لم يزدد إلا عجباً واستغراباً من قِصَر المدد المكتوبة، تساءل في نفسه وحاول التكهن " لعلها جائحة قد حصدت أرواح الكثيرين من أطفالها، أو لعلها مقبرة خاصة بالصغار، أو.. أظن أن لكبار

السن مقبرة أخرى غير هذه في مكان آخر، ولكن القبور تشي بأن من تضمهم تحت حجارتها من كبار السن البالغين ".

حين دخل لشأنه إلى أسواق القرية سأل أصحابها عن قصة المقبرة المتطرفة في ناحيتها، كان الجواب أبعد ما يكون عن توقعه.. إن أهل هذه القرية لا يحتسبون من العمر إلا أيامه السعيدة، والأرقام التي تكتب فوق الشواهد هي أيام السعادة التي عاشها صاحب القبر.

- في هذه الحال، قد أكتب فوق شاهدة قبري عدد سنين.. الحمد لله.. وهذا فضلٌ من الله ومنّة، أصبحت أرى أن الهموم والمصائب والأحزان وكل ما يعترض طريقنا هي وقفات اختبار، مطباتٌ على الطريق، ولقد وضعت هذه المطبات لتهدئ من سرعة انطلاقنا لا لترمي بنا خارج الطريق.. نخفف سرعتنا قبالتها من أجل ألا نجد أنفسنا لحظة اصطدامنا السريع المريع بها، كائنات تتقلب في الهواء ونحن نصارع قدراً محتوماً.. نتريّث حين نصل إليها، ونتأنّ عند اجتيازها، فنجتازها بسلام، وننطلق في رحلتنا ونتابع مسيرنا الهادئ.. ولا نتوقف أبداً.

- أرأيت ما أعذب ما تركته لك الأقدار من حكمة، وما أثمنها من خلاصة!! تركت لك قلباً حياً شاهداً على النِعَم، مرناً، يتقلب في أحوال من الرضا والسلام، في الضراء والسرّاء على السواء.. بوركت سعادتك ودامت بإذن الله.

على قارعة الذكريات

تحلقت العائلة حول مائدة الطعام.. قالت سلمى بتحببٍ ظاهر:

- عماه لقد أعددت لك الحساء الذي تحب.

- سلمت يداك يا بنتي.

قرّب أنفه من الصحن وتشممه قائلاً:

- امممم.. يا لها من رائحة زكيةٍ محببة.. أنت تجيدين طهوها كما كانت أمي رحمها الله تطهوها.

غرق الجد في ذكرياته وغاب عن الحضور برهة.. قطعها عليه سؤال حفيده سمار:

- جدي أتذكر أول مرة أكلت فيها هذه الأكلة؟

- أجل يا بني.. أذكرها تماماً.. يوم كنا ندرس أنا ورفيقي ابراهيم..

وسكت الجد قليلاً وكأنه قد اصطدم بحقيقةٍ ما، هزّ رأسه بحزنٍ واستسلامٍ.. ثم تابع حديثه بشيءٍ من التأثر والأسى:

- ابراهيم -عليه رحمة الله- توفي قبل عامين إثر نوبة قلبية حادة.. كان صديق العمر الذي رافقني منذ الطفولة حتى آخر أيامه، لم نفترق أبداً.. تقاسمنا الأفراح والأتراح، واشتركنا

بالأعمال والآمال، ولم نختلف في تدبير ما يعترضنا من أمورٍ وحادثات وكأننا نحمل العقل نفسه، البعض كان يظن أننا أخوين شقيقين، لشدة التطابق والتفاهم.

علّق الأب على كلام والده مؤكداً هذه الحقيقة:

- فعلاً يا أبت.. كان انسجامكما فريداً من نوعه، وصداقتكما وطيدة ومتينة.. كنت أحبه كثيراً وأعتبره بمثابة عمٍ لي .. رحمه الله.. الأخلاء المتقون الصالحون يلتقون في الجَنة بإذن الله، جمعكم الله وجمعنا معكم في جنات النعيم.

قبّل سمار رأس جده بحبٍ وحنانٍ، وقال مداعباً:

- هيا يا جدي فلتكمل لنا قصة الحساء.

- كنا ندرس في حديقة منزلنا تحضيراً لامتحان الشهادة الابتدائية آنذاك، وفي قمة انهماكنا في الدراسة وصلت إلى أنوفنا رائحة شهية.. تبادلنا نظراتِ من اكتشف شيئاً.. أنا ابتلعت ريقي وأحسست بعصافير الدنيا تزقزق في معدتي.. نظرت في عينيه وكأني أنظر في المرآة.. رأيت الجوع الذي اجتاحني يطلّ منهما ويعربد، ولكنه غالبه قائلاً:

- فلنعد إلى الدراسة.. لا نريد أن يضيع الوقت..

أمسك بالقلم.. ثم وضعه جانباً.. كان إبريق الماء على مقربةٍ مني وكان بإمكانه أن يطلب مني أن أناوله إياه لكنه قام إليه ليشرب كوباً من الماء.. عاد للجلوس.. أمسك بالقلم ثانيةً، ثم

تركه فوق الأوراق، كان يبدو وكأنه يتشاغل، أو يهرب، أو يدافع شيئاً يرغب به كثيراً.. قلت له بمكرٍ لطيفٍ:

- رائحة شهية.. أليس كذلك؟!

- نعم.. نعم والله.. قل لي ما الذي تطهوه أمك؟

- تعال نحزر..

وبدأنا نعدد أسماء أكلات نحبها حتى لو لم يكن لها صلة بتلك الرائحة.. وأخذنا نضحك من أعماق قلبينا من غرابة الأسماء التي ذكرناها واخترعناها.. ضحكنا و ضحكنا حتى أقبلت أمي وفي يديها صحنين من هذا الحساء اللذيذ.

- جدي.. كم عمر هذه الحادثة؟ أنت تذكر تفاصيل صغيرة.

- وكأني بها قد حدثت أمس.. أنا الآن تجاوزت الثمانين من عمري بثلاث سنوات، وقد تقدمت لامتحان الابتدائية في الثالثة عشرة.

- سبعون عاماً يا جدي..

- الزمن يُختصر في الذاكرة.. مواقف وذكريات وحوادث تتوضع فوق رفوف الذاكرة، وتربض كالأوابد المحفورة في الصخر.. حتى لو اعتلاها الغبار فبنفخةٍ صغيرةٍ من الاسترجاع الحميمي والحب تعود متألقة نابضة كما لو أنها قريبة الحدوث دانية التناول.

- هل لديك من الذكريات الأولى ما تحكيه لنا؟ أو فلنقل أول شيءٍ حفظته الذاكرة لك؟

- في رأسي صورة باهتة لجدتي ذات الضفيرتين الصغيرتين الحمراوين، كنت على ما أظن في الرابعة من العمر، أستيقظ قبل انبلاج الضوء وأغادر غرفة نومنا وأنا نصف نائم، أتعثر بأجساد إخوتي النائمين فوق الفرش الممدودة على الأرض إلى جانب بعضها البعض، أفتح باب غرفة جدتي وأتسلل إلى فراشها لأندس قربها، كانت تضمّني إليها وتربت بكفها الحنون على كتفي وهي تهمس بلحنها الهادئ العذب...

" يلا تنام..يلا تنام ".

حانت من سلمى التفاتة إلى دمى الماتريوشكا التي تصطف إلى جوار بعضها فوق رفٍ صغيرٍ من رفوف هداياها، أطالت النظر والتحديق وغابت في لجةٍ أفكارها، أعادها من الغياب صوت سامر بعد أن نظر حيث ترنو، فأدرك أن ثمة ما يجول في رأسها الجميل:

- أقرأ في عينيك حديثاً ذا شأن سليمتي، ولكن فلتنهي طعامك أولاً.

- لقد شبعت واكتفيت والحمد لله، سأحضّر لكم الشاي ريثما تشبعون.. تحبّ الشاي الأخضر يا عماه أليس كذلك؟

- بلى، يا بنتي.. بارك الله بك.

هكذا ترصد عين الأديب دقائق الأمور، تغوص في فوارقها ومفارقاتها، تتلمس غرائبها وتمايزها، تنتبه إلى لغتها الصامتة التي تحكي أسراراً ولطائف.. لقد شدّ انتباهها لغزٌ يحيط دمى الماتريوشكا، أو هكذا خيّل إليها، أو لعلها أرادت أن تنسب لهذه الدمى لغزاً وحكاية.

كان في حديث الجد عن ذكرياتٍ قديمةٍ مغرقةٍ في القدم لفتةٌ إلى احتمال أن يكون للماتريوشكا فلسفة ما أو منطق ما، أتراه يكون في تعاقب الأجيال، أيكون أصغرها هو الحفيد الخامس، وبالتالي أكبرها هو الجد الخامس؟!!... وإذا كان سمار أصغرها، فهو سمار بن سامر بن عدنان بن عبد الواحد بن حكمت..

أثناء تناول الشاي الأخضر بادر سامر زوجته بالسؤال:

- والآن سُليمتي.. هلمّي.. قولي ما لديك.. إن عينيك تشيان بحديثٍ شائق.

- لقد لفتت انتباهي دمية الماتريوشكا الجميلة، الدمية الملونة بألوان الحياة البهيجة والمكونة من قسمين علوي وسفلي يمكن فصلهما عن بعضهما لتجد في داخلها دمية أصغر حجماً، مطابقة لها في الشكل والألوان، ما سرها بالله عليك؟!!

- ماتريوشكا أيقونة الثقافة الروسية ورمزها منذ مئة عام، تسمى حارسة التراث الروسي.. حين تفتح الدمية الأولى لا يسعك التوقف، إذ عليك أن تكمل ما بدأته لأن بداخلها دمى أصغر منها فأصغر.. أضخم ماتريوشكا ما كان بداخلها ٨٠

دمية، وأصغرها ثلاث دمى.. من فلسفتها أن جمال الحياة في تعدد الخيارات، أو ربما في تداخلها.. ومن أسرارها كذلك أن جمال الحياة في غموض المجهول فلا نعرف ماذا يختبئ لنا في كل الغيوب حولنا، أو ماذا ينتظرنا في قادم الأيام.

- حتى هذه الهدية يا سامر.. دمى الماتريوشكا.. تمتّ إلى الزمان بصلة.. وترتبط به ارتباطاً من نوعٍ مختلف.. كنت أظن أن هذه الهدية مع الكف الخزفية لا علاقةً لهما بالوقت، ولكنني اليوم صرت أعتقد جازمةً أن اختيارها لم يكن عبثاً.. إذاً.. أخبرني الآن ما سرّ هذه الكف المصنوعة من الخزف وهي تحتضن زهرة خزفية؟

- أحياناً تبرد عواطف الناس إلى درجة ما تحت الصفر، فلا تجدين كفّاً للمصافحة، ولا ذراعين للضمة، ولا صدراً للاحتضان.. جرّبي أن تحتضن كفاك كفين آخرين، صافحي من تحبين واتركي يدك ممدودة ليغوص الكف في الكف، استمعي إلى حديث التلامس واستمتعي بعذوبته ورقته.

الكف مخلوق جميل، مبدع، مرهف، يتحدث ويَشعر ويُنجز، يقول ما يعجز عنه اللسان، ويعبّر ببساطة شديدة، بإيماءةٍ متواضعة، بتواصلٍ حيّ، وباهتمام مباشر، لهذا كان نبي الرحمة والأخلاق محمد صلى الله علّيه وسلم لا يسحب يده من مصافحة صحابيٍ حتى يسحبها ذاك.

- إذا.. أظن أن هذه الهدية لا تستشرف أفقاً من آفاق الزمن الذي تقاوم سطوته؟!.

- كيف لا.. إن مدة المصافحة تشي بالحب وتؤجج حرارته.

- أوه نعم.. حتى هذه.. بالله عليك قل لي أي علاقةٍ تلك التي تربطك بالوقت إلى هذه الدرجة؟!! لِمَ تمس هداياك جوانبه، وتحاكيه، أو تحكي عنه بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر؟!! حتى باقة الورود الاصطناعية، فقد أخبرتني يوم قدمتها لي أنك اخترتها لأنها تقاوم الذبول والموت وتصارع الزمن فلا يغلبها في امتصاص رونقها وجفافها.

- أنا أهزم ساتورن..

- من؟!.

- كائنٌ أسطوريٌ، يقال أنه يبتلع أبناءه، ويرمي بهم في لجة النسيان.. في رمزية واضحة لدور الزمن في حياة البشر.. في أسطورة ساتورن، يبتلع الزمن كل شيءٍ، ويغيّبه.

- لكن النسيان نعمة في كثير من الأحيان.

- صحيح، ولكن في حياتنا الكثير من الأشياء التي تهزم النسيان،

- مثل ماذا؟!!

- الأوابد.. الرُقم.. والمخطوطات.

- نعم.. هذه هي أبجديات التاريخ.. كيف لا وأنت رجل التاريخ يا زوجي العزيز.

صندوق الرقيقة المتألقة

- والآن حبيبي سامر.. لقد أصبحت على يقين كامل أن لك حكايتك الخاصة مع الزمن؟! فأغلب هداياك كانت في عيد زواجنا ساعاتٍ.

- فعلاً يا روحي.. أنا لي مع الزمن حكاية مختلفة، تشبه حكايات الأساطير القديمة.

- ألهذا اخترت فرع التاريخ في دراستك الجامعية؟

- اخترت دراسة التاريخ لأن حركة الزمن والأحداث ودور البشرية فيهما من الأزل إلى الأبد تستثير خيالي وتستفز أفكاري، لكنني وعلى الصعيد الشخصي الخاص، أحتفظ بحكاية شخصية تسكن في الصندوق الخشبي المطعم بالعاج.. ويحرسها مارد الحب الشجاع الأمين.

- الله؟!!.. ومن هو المارد المزعوم؟ لعله أنت؟ فأنت تحتفظ بالصندوق في درج مكتبتك وتخفي المفتاح عنا منذ أمدٍ، وقد احترمت خصوصيتك ورغبتك بالاحتفاظ بأسرارك حين وعدتني أن تطلعني عليه ذات يوم، فهل تراه قد آن الأوان؟!.

- حسن يا حبيبتي.. الليلة وفي سهرة المساء حين يجتمع الأولاد، سأحضر الصندوق لأريكم ما فيه.

في المساء تحلقت العائلة حول صندوق سامر العجيب، كانوا يتهامسون ويتكهنون بما فيه.. قد بلغ الفضول بهم كل مبلغ.. ضحك الأب من ملامحهم التي اكتست حلة الجدية والترقب.. أراد أن يماطل للحصول على مزيد من اللهفة في عيونهم.. تلفّت حوله قائلاً:

- أين قهوة المساء؟ ستكون السهرة بنكهة الماضي والحب والذكريات، لقد أحضرت لكم بناً فاخراً خصيصاً لهذه المناسبة المميزة.

ابتسمت سلمى ابتسامة ماكرة وهي تغادر لتحضير القهوة المطلوبة، وقالت في تحدٍ جميل:

- ماطل كما تشأ.. لن تغلبنا هذه الدقائق القليلة.. لقد انتظرنا طويلاً.

مع أول رشفةٍ تبسم سامر ثم وضع فنجان قهوته جانباً، راح يفتح الصندوق بمزيد من الرومانسية وهو يستعد لجولة تحليقٍ في فضاء ذكرياته الخاصة.. جداً:

- هذا صندوق الرقيقة المتألقة، نجمة العائلة الذهبية، صندوق حبيبتي سلمى.. اشتريته يوم ولادتك يا سليمى.. وبدأت أضع فيه كل ما يخصك من ذكريات وبقايا وآثار.. انظروا جميعاً.. انظري سليمى..

هذه كفّ صغيرة من لدائن طبيّة تصلح كعضاضة أسنان.. كانت لك في استقبال بزوغ لآلئك الصغيرة..

هذا هو حذاؤك المضيء.. ففي تمام عامك الأول كنت تخطين أول خطواتك، وقد أهديتك حذاءً مزركشاً في نعله لدّات ضوئية تضيء عند كل خطوة.. لقد تخيلتُ يومها أني الأمير الذي يبحث عن سندرلاه ليلبسها حذاءها المرصع.. لكنك خفتِ منه وهو في قدميك، والتجأت إلى حضن والدك فزعة.

هذه قصاصات ملونة تضمّ بعض كلماتك الأولى والتي كانت غريبة عجيبة.. قمت بكتابة كل كلمة على ورقةٍ خاصة.. كنت مثلاَ، تقولين عن الطعام أومينا.. الملعقة ألديت.. العلكة غاغا.. أو كنت تقلبين الحروف في بعض الكلمات.. مثل ترك فتقولين كَرَت.. وتلعب تعلب.. وبحر برح ....

- حقاً!!.. يا الله ما ألذني.. أكيد كنت آخذ العقل..

- طبعاً حبيبتي.. فأنا قد أُخذت بك عقلاً وقلباً وروحاً.. وهذا دفتر الرسم الصغير خاصتك، يحوي خربشاتك الطفولية الأولى، كنت تعشقين الرسم والأقلام، وهذه بقايا علبة التلوين التي ضيّعتِ أغلب ألوانها..

- أنا ما زلت أحب الرسم يا زوجي العزيز.. أشعر أحياناً أن الأفكار تتدفق من يدي فوق اللوحة كشلالٍ هادر..

صمتت سلمى.. غصّت وابتلعت غصتها، وقد شردت إلى لحظة مؤلمة ..

- ما بك؟

- تذكرت يوم أجبرني أبي على إعادة أدوات الرسم إلى البائع مكرهة.. كانت لحظة عصيبة تهاوى فيها بعض طموحي وتصارع حب الرسم في داخلي مع واجب طاعة أبي.. أذعنت لأمره وقتذاك.. ثم بكيت ما طاب لي البكاء.

- هيا عزيزتي.. لا تعكري صفو استرجاعنا أجمل ذكرياتك.. دعي الماضي يرحل بما فيه، انسي آلامه.. ودعينا نكمل.. هذه زهرة مجففة قطفتها لك عندما كنا في رحلة عائلية إلى غابة المدينة، كنتِ في السابعة، ولقد أمسكتِ بها لثوانٍ، ثم رميتِ بها أرضاً بعد أن أدخلت أنفك في تضاعيفها.. وقلتٍ لي..

" لا أحب الزهور التي لا رائحة لها "..

هذا ألبوم صور صغير يحتوي عدداً قليلاً من الصور الوثائقية.. انظروا.. انظري.. الأولى صورتك عندما كان عمرك ساعات قلائل، هنا فوق سرير المشفى، الثانية، يوم عيد ميلادك الأول وأنت تخطين خطواتك الأولى، الصورة الثالثة بعد عام.. لقد كنت ألتقط لك صورة على رأس كل عام لأضعها في هذا الأرشيف.. هذه صورتك التي تقدمتِ بها لإضبارة الصف الأول، وهذه للشهادة الابتدائية، وهذه للشهادة الإعدادية.. هنا وتحت كلّ صورة بطاقة صغيرة كتبتُ عليها..

" حبيبتي كبرت عاماً "..

وفي الصفحة الأخيرة من الألبوم، وضعتُ صورة زفافنا، وكتبتُ تحتها سطراً من أغنية فيروز..

" أنا لحبيبي وحبيبي إلي "..

التقطت سلمى الألبوم وراحت تمعن النظر في صوره، علّقت وهي تخفي قلقاً مشروعاً تسرّب إلى نفسها:

- فكرة رائعة أن يشهد الإنسان تحوّل ملامحه، وتقدّمه في العمر، لكنه يشي بخطورة اقترابه من الهرم.

علّقت سوسن على كلّ ما سمعت:

- هكذا إذاً.. فأنت تحتفظ لأمي بكلّ هذه الأيقونات الجميلة، ألا تحتفظ لنا أنا وأخي بمثلها؟

- لقد اشتريت لكما عند ولادتكما مصنّفين، زهري اللون لك، والأزرق لسمار، وعهدت لوالدتك بتسجيل تطوراتكما ورصد مراحل نموكما.

- أجل أذكرهما، لقد أعطتنا إياهما بعد نجاحنا من الصف الثالث، وأوعزت لنا بالاستمرار في الكتابة فيه ما دمنا قد صرنا قادرين على ذلك.

علّق سمار الذي كان صامتاً حتى تلك اللحظة:

- أي حبٍّ هذا؟!.. إنه يشبه الأساطير في روعته وبهائه.. لقد طرق الحبّ بابك في الخامسة عشرة من عمرك، وها أنت اليوم تكن لأمي الحبيبة نفس المقدار من الحب إن لم يكن أعظم.

أجاب الأب:

- إنها الملكة المتألقة على الدوام.. انظرا إليها.

احمرّت وجنتا سلمى وزادها الخفر جمالاً.. ضحكت وهي تشد أذن ابنها:

- يا لك من مكار..! أنت تصطاد في الماء العكر.

تملّص سمار من قبضتها وتحرك متنحنحاً يرفع ياقة قميصه ليكمل أناقته:

- أمي.. لقد جاء دورنا.

- تريد أن تسحب بساط الحديث إلى طرفك؟ أليس كذلك؟

سارعت سوسن إلى الإدلاء بما تعرف على طريقة الغمز بأخيها:

- يريد أن يقول أنه قد وقع في الحب.. وأنه...

-رجاءً سوسن لا تتحدثي عني.. أعرف كيف أدير دفة سفينتي.

دهش الأب واعترته مشاعر كثيرة دفعة واحدة.. الأبناء قد صاروا شباباً.. وقطار العمر قد رحل بهم سريعاً في محطاته المتلاحقة.. سلمى محبوبته الآن أمٌّ لشابين رائعين يريدان الخوض في غمار الحياة أكثر.. هما الآن في سن الحب والزواج، سن الاندفاع والتهور، سن الجرأة والمغامرة.

فردوس الجد أبي سامر

دخل سمّار الغرفة المحرمة التي لم يكن يُسمح لأحد بالدخول إليها إلا برفقة الجد.. الغرفة التي كان يدعوها فردوسه الأرضي الصغير.. ينغلق بابها على مباهجه الخاصة.. كان الجد المريض قد أوزع إلى أهل بيته أن يضعوا له سريراً في تلك الغرفة.. وكأنه أراد أن يقضي آخر أيام حياته فيها.. أن يلفظ أنفاسه الأخيرة بين جدرانها، تيمّناً منه بالانتقال إلى الفردوس العلوي.

صرّ الباب عند فتحه، ولأن الحفيد سمار يعرف قدر كراهية جده لصوت صرير الأبواب فقد همس في إذن عمته:

- ألديك قليلٌ من الزيت؟ أي زيت؟.. دعيني أُزيّت المفصلات.

- بالطبع لدي.. سأحضره لك حالاً.

كان الجد لا يحتمل الصوت المستمر لنقطة ماء تسقط من صنبور مهترئ، ولا تكتكة عقرب الثواني في ساعة قديمة، ولا جعجعة محرك مروحة صدئة.. كلّ الأصوات الرتيبة تصيبه بالتوتر والغثيان والانفعال.. والجد المحتضر نائمٌ، لكن كلماته تحضر في الوقت المناسب دائماً.. " صرير الأبواب يذكرني باقتراب الشيخوخة، ويبتعث الألم في مفاصل الركبة ".

كان بيت الجد عادياً متواضعاً، غرفٌ ثلاثٌ ومطبخٌ تحيط بها شرفة طويلة لا يتجاوز عرضها متراً واحداً إلا أمام غرفة الجلوس والمكتب فيزداد عرضها إلى مترين، قد حشر الجد على أطرافها أحواضاً كثيرةً لزهرة الغاردينيا.. عبثاً كانوا يحاولون إقناعه بتنويع حديقته الصغيرة بإضافة الفل والبنفسج والياسمين.. كان يقول..

" الياسمين رمز بلادي.. يطوّق عنقها كقلادةٍ ثمينة مرصعة بالبياض، جمال عرائشه المترامية في حدائق المنازل الأرضية وفي الحدائق العامة، وجمال عطره الساكن في قلوبنا، يحيكان قصة وطن.. لا يسكن الياسمين أحواضاً مادام يسكن وطناً بأكمله ".

أما غرفة مكتبه فهي الغرفة المميزة في المنزل.. تغطي مكتبةٌ جداريةٌ حائطين كاملين، وقبالة الحائط الثالث تربض طاولة مكتب فخمة يتوضع فوقها طاقمٌ جلديٌ من الأدوات المكتبية، مجلد أوراق، حامل أقلام، عاكس ضوء معدنه بني اللون مما يتناسب مع التواجد الخشبي الكثير في المكان، عند الباب المؤدي إلى شرفة الغاردينيا يستقر بهدوءٍ كرسيٌ هزاز ضخم تكاد تلاصقه بحميميةٍ طاولةٌ صغيرة مرتفعة الأرجل تتوسطها صينية برونزية مزركشة بفنون الخيط العربي تصطف فوقها فناجين قهوة مرة مع دلة نحاسية وطاسة مشغولة بخيوط الفضة، قد خصصت لوضع زهور الغاردينيا.

الجد هذا، قامة وطنية سامقة.. شارك أثناء شبابه في حروب بلادنا ضد العدو الصهيوني فوق هضبة الجولان المحتل...

ومنذ بداية الأحداث الغاشمة الدامية في سوريا كان يقول ويردد..

" الصهاينة وراء كلّ ما يحدث، لكن بلدنا ستنتصر، وجيشنا سينتصر ".

ما أبلغ كلماتك وأعمق حكمتك يا جدي!!!

كان يؤثر الصمت في كلّ الحوارات الدائرة بين الناس حول الأزمة، بين موالٍ ومعارض، بين متفائلٍ ومتشائم، ثم لا يردد سوى عبارته تلك، في ختام مجلس المحللين والمتفلسفين ولا يزيد عليها حرفاً واحداً.

مات الجد في منتصف عام ٢٠١٦ قبل أن تتخلص سورية من براثن الإرهاب الذي عضّها بأنيابه الشرسة، وما زال الجميع ينتظرون أن تحقق نبوءته..

" لكن بلدنا ستنتصر، وجيشنا سينتصر ".

بنك الأيام لا أحد يعلم رصيده المحدد له فيه، قد أُودع باسمه منذ لحظة تكونه في رحم أمه.. رصيد لا يعلمه إلا الخالق وقد غيّب عن الناس معرفة مداه رحمة بهم..

نيوب الفقد

استغرق الحزن سمار فطالت لحيته، واختفت ضحكته، وكسا إيقاع حركته همود نفسي واضح الملامح.. استبد برفيقه مازن القلق عليه فطلب إليه أن يرافقه في نزهة قصيرة إلى حديقة المدينة، وراح يناور في طرح شتى الأحاديث التي تخرجه من حزنه، ثم عرّج بشكل صريح على قضية الموت ليستخرج الأحاسيس الضاغطة على صدر صديقه إلى العراء، هكذا نتخفف من أثقال الروح بمواجهتها، ومن أصفاد المعاناة باقتحامها.

قال سمار في شرودٍ:

- كان جدي يملك حفنة من النقود في صرةٍ مخمليةٍ خمرية اللون، وكان يكره أن يعد نقوده كي لا تذهب بركتها حسب قوله.. وقد أسرّ إليَ يوماً أنه لا يملك سواها، وأنه يظنّ أن نفادها هو العلامة الربانية لأجله المسمى، وأنه سيفارق الحياة إذا نفدت.

- قصة جدك تشبه قصة المريض الذي تعلّق بالورقة الأخيرة في الشجرة المجاورة لغرفته.. كان يعتقد أن في سقوطها نهايته المحتومة، وكانت تلك الورقة هي أول ما يسعى لرؤيته كل صباح يستزيد بوجودها يوماً في عمره.

- نعم.. هو ذاك، وقد قمت أنا بعملٍ يشبه ما قامت به زوجة ذاك المريض، التي علّقتْ مكان الورقة الطبيعية ورقةً اصطناعيةً لا تذبل ولا تسقط، حتى طال أمد انتظاره، وغالبه الشفاء والأمل، وداهمته الصحة مع التداوي فقام إليها شاكراً.

- فما الذي فعلت أنت؟!.

- كنت أضع ما أمكنني وضعه من نقودٍ في غفلةٍ من جدي، وقد أعانني على عدم اكتشافه أمري، أنه كان إذا احتاج المال ينسله نسلاً من الصرة دون فتحها.

- أيها الحفيد المحب.. رائعٌ عملك في دفع تأثير وهم هذه الفكرة المسيطرة، المحيطة به كسجن.. ألا.. ما أغرب الإنسان وهو يسجن نفسه داخل فكرةٍ ما.. ألا.. ما أكثر سجناء أفكارهم وأوهامهم، وهم يقضون بين قضبانها الحديدية سحابة العمر، ويدورون في فلكها كثور الطاحون، فلا يثمرون خيراً ولا يرتادون فرحاً.. أقول ذلك بالعموم طبعاً ولا أقصد تجريح أحد.. الفكرة أحياناً تصبح وسواساً قهرياً، لابد من العمل على البرء منه.

مدّ سمار يده إلى جيبه واستخرج ورقة مطوية بعناية استثنائية، وقال لصديقه وهو يفتحها ببطء شديدٍ:

- سأقرأ لك آخر كلماته التي دوّنها قبل موته، على دفترٍ صغيرٍ، كان يحتفظ به تحت وسادته.. " أنا أشعر بدنوّ أجلي تماماً.. أحس بتلك اليد اللطيفة التي تمتد عبر خلايايَ الهرمة لتوقّعَ عليها بختم انتهاء الصلاحية، من منا لا يعرف أنه سيسلّم

الأمانة يوماً ما في نهاية مطاف حياته!! هاآنذا أقف عند الحافة التي تعلوها لافتة الوداع، أتلفّتُ إلى الوراء لأرى سنيني تتزاحم في عرضٍ سينمائي متفرّدٍ يضجّ بكل ألوان الحياة.. أتفحّصها لوناً.. لوناً.. وأشهد عند كل لونٍ كسباً اقترفته، وحكايةً عشتها، ومتعةً حرصت على نوالها، وتفاصيل كنتها واتخذتها لي سمتاً وعنواناً وقضيةً.. أتذكر يوم سألني أحدهم عما أطمح إليه في آخر العمر؟!!.. وكان جوابي في ذلك اليوم.. " أن أعدّد إنجازاتي قبل موتي فلا أحصي لها عدداً ".

- وهل تعتقد أن جدك قد عمل على ما تمناه بشكلٍ جديٍّ؟

- أظن ذلك حقاً، لقد نال من الشهادات التقديرية والجوائز والأوسمة الشيء الكثير.. كانت حياته غنية فوارة، والحقيقة يا صاحبي.. أنك لا تقدر، ولا أحدٌ سواك، أن يضيف أياماً إلى حياته، فالأعمار علمها عند خالقها، لكنه يقدر أن يضيف الحياة والغنى إلى أيامه، وهنا يكمن الشأن كله.

- لقد ذكرتني بآخر مقالٍ قرأته حول هذا الموضوع.. فحواه.. أنه حين توفي الفيلسوف برتراند رسل.. كتبت إحدى الصحف البريطانية ترثيه قائلة:

" توفي بالأمس شابٌ إنجليزيٌ.. شارف الثامنة والتسعين من عمره ".

- شابٌ؟!!.. هكذا نعته الصحف ونعتته؟!!

- نعم.. إذ إن هذا المفكر بقي حتى آخر لحظة من لحظات حياته شاباً متوثباً يتمتع بكامل قواه الجسدية والعقلية، لقد سافر كثيراً، مزج الجد بالهزل والعمل باللعب، تنعّم بالفراغ والحرية والاستمتاع، انتقد الحياة الشاقة التي تفرزها عبادة الفعالية، إلى أن صارع الموت بالحياة.

- فعلاً.. ليس المهم كم ستعيش، المهم كيف تعيش.. الكيف هو القضية.. هو الشأن الأعظم الذي يؤطر مسؤوليتك تجاه ما آتاك الله من قدراتٍ ونِعَم وملَكات، بالكيف يبرز دورك في حمل الأمانة، واقتحام العقَّبات، وبالكيف تقف للمساءلة الحتمية التي لا مهرب منها في جملة قرآنية حاكمة هي..

" ولسوف تسألون "..

لغزا الحياة والموت

الحياة والموت كلٌّ منهما يضعنا في مواجهة سؤالٍ هامٍ وخطير إلى أبعد حد..

الحياة المستمرة.. التي تطلّ مع كل فجرِ يومٍ جديدٍ.. لتلحّ علينا بسؤالها المربك..

" ماذا عملت فيما علمت؟ "..

والموت.. الذي نراه يتلصص ليسرقنا فرداً فرداً.. على مرآى ومسمعٍ منا، نشهد حشرجة استلابه لصولة الروح التي تسلم قيادهاً، ونسمع دبيب خطوه الذاهب إلى القبر حيث المثوى الأخير، تاركاً لنا الوعد الصادق بالقدوم إلينا يوماً ما، وراسماً إشارة استفهامٍ كبيرةٍ في ذيل سؤالها المحرج..

" ماذا ستترك وراءك؟!! "..

ويتناغم السؤالان ويتمازجان ويتحدان ليشتركا آخر الأمر، وفيما بعد.. بنتيجةٍ وخلاصةٍ مصيريةٍ تختصرها الآية التي تقول:

" لمثل هذا فليعمل العاملون "..

أمام صورة الجد المتوفى وقفت سوسن تتأمل ملامحه الصامتة، التي كانت قبل قليلٍ من الزمان، تضجّ بالشغب

وبمقارعة الأيام، لكنها الآن مجرد صورة على جدار.. مسحت دمعتين باردتين هطلتا على خديها والتفتت لترى سمار يقف إلى جوارها وقد احترم وقوفها في حضرة رثاءٍ خاصٍ بها، ربما..

قال لها دون أن يترك لها المجال لتبادره بلومٍ:

* كلنا سنصير يوماً ما صورة على جدار، أو على طاولة مكتب، أو في ألبوم صور.

أجابته وفي عينيها استفهامٌ وقلق:

- إن لغزي الحياة والموت يستثيران فضولي.

* هما لغزان حقيقيان بكل معنى الكلمة، ثمة مفكرون اعتبروا أن النبضات الأولى في قلب وليدٍ خرج للحياة لتوه، هي خطواته الأولى في طريق العدم، بل إن الحياة نفسها موتٌ مستمرٌ، لأننا لا نكفّ في أية لحظةٍ عن بناء موتنا.. من لغز الحياة، أن الحياة في الجنين، تسبق حلول الروح فيه، فالجنين يتكون من التقاء حيوانٍ منويٍ حيٍّ ببويضةٍ حيةٍ، وبعد التلقيح والانقسامات الخلوية، على مدى مئة وعشرين يوماً، منذ بدء تخلّقه، تُنفخ فيه الروح، وعندها تحدث تغيرات في الاستجابة للمؤثرات المختلفة.

- إذاً.. نفخ الروح لا يتم إلا في جسدٍ حيٍّ.

* نعم.. وللجسد الكامل حياة تختلف عن حياة أعضائه منفصلة.

- ماذا تعني؟!

* سأشرح لك بمثال.. إن استئصال الكلية من الجسد يفصل خلايا حية عن الروح، وإذا لم نسارع إلى زرعها في جسدٍ آخر قبل أن تموت، سيسرع إليها العطب والتلف ويكون مآلها الموت السريع، وهناك في الجسد الجديد تتصل بالروح الجديدة، وتكمل مسيرة عملها.

- وكيف نبقي على حياة عضو مستأصل؟

* لا يمكننا الإبقاء عليه حياً أكثر من بضع ساعات، ولهذا تكون عمليات التبرع بالأعضاء متوافقة زمنياً ومتقاربة.

- وإذاً.. فالجسدُ يفقد الروحَ قبل أن يفقد الحياة.. وهنا يبدأ لغز الموت.

* ولهذا.. فإن الوقت الفارق الفاصل بين خروج الروح وانعدام الحياة، وقتٌ ثمينٌ جداً.. أكثر مما تتصورين.. لأن الموت الإكلينيكي يعني خروج الروح، بينما تظلّ خلايا الجسد حية لفترة قصيرة ثم تموت في الموت الخلوي البيولوجي، حيث يبدأ نشاط الخمائر لتكسير مواد بناء الخلايا، وهذا الوقت الثمين، استغله الطيبون والأشرار على حد سواء.

- وكيف استغله الطيبون؟!.

* بالتبرع بأعضائهم السليمة لمن يحتاجها أثناء موتهم السريري، بهدف إنقاذ حي من براثن مرضٍ وبيلٍ في عضوٍ ما من أعضائه، وذلك عندما تتوافق أنسجة الآخذ والمعطي.

- والأشرار؟!.

* لقد اُستثمِر هذا الوقت الثمين في التجارة ليدرَّ الأرباح الطائلة على حساب البسطاء أو المغفلين أو المحتاجين.. بل لقد نُظِّمَتْ جرائم نكراء لتستغل مشردي وبؤساء الحروب والتي تكون مفتعلة على الغالب، لهذه الغاية أو تلك.

- نعم.. هكذا في كلّ الأمور.. تبدأ عادةً المخترعات والمكتشفات لصالح النوع البشري مطعّمةً بالخير وبنكهة النفع العام، ثم ما يلبث أن يستحوذ عليها الخبثاء وعبّاد المال والمفسدين في الأرض لتغدو سلاحاً ذا حدين، يضرّ بقدر ما ينفع.. يا لهؤلاء البشر.. المجرمين.. إنهم مصرون على الإجرام والاقتتال.

* ألا تعلمين أنهم يتفنّنون في إنجاب نسلٍ خاصٍ للقتال في الحروب، نسلٍ ينضوي تحت مسمى ثمار النضال إذ يقصد لذاته في علاقةٍ بين ذكورٍ وإناثٍ مجندين في جيوش المرتزقة أو أصحاب الغرض، ونسلٍ يتكون من لقطاء الشهوة المحرمة، ومن الأبناء غير الشرعيين لسبايا الحروب كثمرة الاغتصاب المقنع تحت مسميات جهاد النكاح والزواج المؤقت، ويبتكرون له الوسائل المتنوعة، من الإغواء وتزيين الخطيئة لجعل صوت الشهوة صارخاً يزيد في تأجيج نيرانها، كما يبتكرون أحدث الوسائل للتلاعب بالعقول وخداعها وحفزها للدخول في صراعاتٍ ليس لهم فيها لا ناقة ولا جمل، قد غيبهم الظن الأبله في أنهم ينتصرون لقضيةٍ ما.. كما يتفنّون في صناعة الحروب وفي ابتكار أسبابها المباشرة المعلنة، يخططون لها وفق دراساتٍ حقيقيةٍ للشعوب ولنقاط ضعفها وللثغرات الهشة في

تلك المجتمعات، لتبدو دواعيها إنسانيةً بحتة، لها مصداقية الاهتمام بالإنسان وحقوقه، وتبقى الأسباب غير المباشرة وغير المعلنة في الخفاء تتستر خلف ستائر النبل والتباكي على البسطاء والضعفاء في هذا العالم.. تحدوهم في ذلك كله مصالحهم الاقتصادية، وجشعهم اللامتناهي، وشذوذهم النفسي.

- دعنا من حديث الحروب.. ولنعد للحديث عن هذا الجسد المعدّ للفناء.. إنه مطيتنا وآلتنا للعيش وينبغي أن نعرف أسرار عمله.

* الحوادث البيولوجية التي تحدث لنا بعد الولادة تحدث في أوقاتٍ مختلفةٍ، كما تظهر عند كلّ منا بسرعات مختلفة.. كما أن بعض المواد الكيميائية في أجسامنا تُطلق كلّ ساعة، بعضها كلّ ٣ساعات، البعض الآخر على فترات أخرى أطول، وهذه الآليات الساعية التي تحكم أجسادنا تصبح أقل دقةً مع التقدم بالعمر. شأنها شأن الكثير من الوظائف الحيوية كالنوم مثلا، إذ تنخفض عتبة الاستيقاظ من النوم، كذلك معدل الاستقلاب الأساسي..

ونحن نطرح ملايين الخلايا الميتة كلّ يوم، معظم الخلايا الموجودة في جسدنا اليوم لم تكن موجودة قبل خمس أو عشر سنوات، وبدقةٍ أكبر فإن بعضها لم يكن موجوداً يوم أمس.. هناك انقسام متواصل(يومي) في خلايا أنسجة الجلد، وبطانة القناة الهضمية، وخلايا كريات الدم.. هناك خلايا أنسجة تُستبدل على مدى أطول في عملية تحوّل.. وهناك خلايا لا تنقسم أو تتحوّل إطلاقاً هي الخلايا العصبية، الهيكلية، عضلة القلب، إنما تزداد حجماً، لا عدداً.. وكل خلايا الجسد تظلّ في

طور البناء إلى أن تبدأ في عمر ٥٠ أو ٦٠ في طور الهدم والهرم.

- إلى أن يأتي الموت طبعاً.

* ثمة فارقٌ بين الأحياء والأشياء المادية، نحن مثلاً نعيش باستنشاق الأكسجين الموجود في الجو، لكن الأشياء المادية تتخرب باتحاد جزيئاتها مع الأكسجين وتأكسدها تحت تأثير مرور الزمن، وتراكم التآكل فيها يؤهبها لانكسارٍ لاحق، يشبه في هذا فقدان النشاط المناعي الذي قد يؤهب المسنين للموت، ذلك أن عمل الجهاز المناعي هو اكتشاف المتعضيات المجهرية والمواد الغريبة التي تتراكم في الجسم وإزالتها، لتتم مواصلة الحياة بحيوية.

- ليس الموت للمسنين فحسب، إنه لا يعرف صغيراً أو كبيراً.. والأجل المسمّى، العمر المكتوب لكل أحدٍ ينتهي بخروج الروح وعودة النفخة الربانية إلى بارئها..

* طبعاً.. الموت ليس نتيجةً حتميةً تأتي عقب الهرم، الموت قد يحدث فجأة، وفي أي عمر ولأي سبب، ليكون الحادث الطارئ على خلايا فتية، قد يتسبب به قتلٌ غاشم، أو مرضٌ غادر، أو حادثٌ مفاجئ، وما من حاذقٍ مهما بلغت درجة علمه بقادرٍ على أن يحدد لحظة خروج الروح، قد يتنبأ وفق ما لديه من معطيات فيزيولوجية عن جسدٍ متآكلٍ مريض، وكم من أشخاصٍ عاشوا الغيبوبة الكاملة إلا من نفَسٍ يخرج ثم يعود.

عند أبواب التاريخ

عاد سمار إلى المنزل بعد أن أنهى تدريبه في دورة الكاراتيه.. ألقى التحية وأراد أن يستلقي كعادته لدقائق عدةٍ على الأريكة لينال قسطاً من الراحة قبل أن يدخل للاستحمام، إلا أن والده كان قد سبقه إليها.. كان الأب متمدداً وفي يديه كتابه يقرؤه.. فجلس سمار أمامه وسأله عن الكتاب الذي بين يديه.. أجاب سامر:

- لقد أحضره لي صديقي على سبيل الإعارة..

- دعني أرى في أي عامٍ كانت طبعته الأولى.

- إنها في عام ٢٠٠٤ م.

- آآ.. نحن الآن في ٢٠١٧.. لقد صار الكتاب قديماً.

- يا ولد.. ألا تحب إلا قراءة الكتب الطازجة التي نضجت لتوّها، وخرجت من فرن المطبعة؟!!

- ليس بالضبط.. لكني أعتقد أن الأفكار تموت، وبتعبير آخر، يتقادم عليها الزمن فتكاد تفقد صلاحيتها أو تغدو محنطة كمومياء.. أبي.. في زمن تسارعت فيه خطوات المعارف وتراكمت بصورةٍ عجيبةٍ، أكاد لا أجد وقتاً إلا لمطالعة آخر ما قذفتْ به أمواج الفكر المتلاطمة إلى المطابع، لأكون على مستوى الحداثة والتطور، وكم يسعدني أن أتعرّف على آخر ما

توصلت إليه النخبة من الأدمغة البشرية من المليارات السبعة التي تقطن كوكب الأرض.

- أما أنا.. فأحب أن أعرف سرّ البدايات لكل عِلم، أن أمسك رأس الخيط، أن أسافر عبر آلة الزمن إلى آماد سحيقةٍ لاستقراء أول بزوغ فجر المعرفة عند الأوائل، أحب أن أعرف أول الأبجديات، وأول النوتات الموسيقية، وأول الاختراعات، وأول الأساطير، وأول الفنون، وأول الاكتشافات.. يمتعني أن أعرف مثلاً أن أول إشارة لاستعمال القهوة ورد في مخطوط موجود بالمكتبة القومية في باريس، تاريخه يعود إلى سنة ١٤٥٠م، يقرر فيه أنها كانت موجودة في اليمن.. وأن أول جائزة نوبل للآداب كانت عام ١٩٠١م قد حازها الفرنسي رينيه سولي.. وأن أول أبجدية في التاريخ عثر عليها في رأس شمرا، أوغاريت، في محافظة اللاذقية، تعود إلى القرن ١٤-١٥ ق.م، وهي تتألف من ٣٠ حرفاً تشابه العربية إلى حدٍ كبير، إذ وجد علماء الآثار قرابة ٨٠٠ كلمة هي نفسها في اللغة العربية موجودة في متحف دمشق.. أمثلة لا على سبيل الحصر.. تحكي مغامرة العقل الأولى في اكتشاف الحياة.

- قد حببتني اليوم بالتاريخ على نحوٍ خاص.. أبي.. باعتبارك الضليع في علم التاريخ، حدِّثني عن كيفية تقدير عمر اللقى الفخارية والرُقم، لمعرفة العصر الذي تنتمي إليه؟! أنا أُدهش حين أسمع خبر اكتشاف حاثةٍ أو أُحفورةٍ من آلاف السنين.

- يتم ذلك من خلال تحليلها لقياس وجود الكربون المشعّ في الرماد وفي المخلفات ذات الأصل العضوي.. الرُقم وألواح الكتابة الطينية بالذات، والتي هي بمثابة الأوراق المكتوبة

الأولى، فهي ترجع إلى عصور الكتابة الأولى، وهي التي تحتفظ بالأساطير المدونة في حوالي ٣٠٠٠ ق.م على أقل تقدير.

- الأساطير؟!! تلك الخرافات التي كانت سائدة؟

- لا.. أبداً.. ليست كلها خرافات.. فهناك الأساطير العلمية التي تجد فيها عقلية علمية تدلّ على مستويات راقية في علوم الفلك والطبيعة.. وهناك التاريخية منها والتي تجد فيها معارف الإنسان الأول وعقائده مشبعة بروح التدين والارتباط بقوى السماء وزاخرة بالقيم والفضائل.. وهي على العموم حكاية مقدسة يغلب عليها الطابع القصصي المصوغ بقالبٍ شعري غنيٍّ بالمحسنات البديعية والخيال ومزودة بشحنات العاطفةً والمشاعر الجياشة التي تجعلها قريبة من القلوب.. وليكن في علمك أن الأسماء في الأساطير ليست اعتباطية، بل قصدية، تتماهى مع روح الأسطورة.

- نعم صحيح.. لقد كانت تسطّر مغامرات العقل الأولى في ميادين المعرفة المختلفة، ولا ينبغي لمصدرٍ هامٍ من مصادر الثقافة الإنسانية أن يبقى في دائرة الظل، والأساطير تركة ميثولوجية غنية.

- هو كذلك بُني.. إن النفاد إلى سرّ الأشياء والخوض في أعماقها يسمو بك إلى ما يشبه التصوف، بعيداً عن تعقيدات البحث والتقصي.. وطبعاً.. لهؤلاء الأقدمين مقولاتهم ونتاجهم الفكري وتأملاتهم وطرقهم في تفسير الأشياء وتعليل أسباب حدوثها، ويتأثر فَهْم كلّ هذا الرصيد من الثقافة، بآليات التفكير

الحالي وبالبعد الزمني الغابر عن تلك الأساطير.. لكنك على كلّ حالٍ تجد في الأسطورة رسالة غير زمنية وغير مرتبطة بفترة ما، طالما حافظ النص الأسطوري بثباته على الطاقة الإيحائية دون جمود أو تحجر.. وعلى الصبغة الرمزية الموحية والموفقة في إيجاد لكلّ ظاهرةٍ طبيعيةٍ كائناً روحياً يمثلها أو تتمثل فيه.

- لا شك في ذلك.. إنها في نهاية الأمر أثرٌ إنسانيٌّ، تتوارثها البشرية جيلاً بعد جيل.. والآثار أوابد وشواهد صامتة ناطقة تثرثر وتروي.

- الأوابد بنوعيها، الحجرية كقلاع ومدن، والفكرية كمخطوطات ضمّت علوماً وتراثاً.. وبلادنا غنية بكلّ أنواع الأوابد.. أو تدري أن النص الأصلي للأساطير السومرية والبابلية والأوغاريتية قد كتب بجذوراللغة العربية، وهي تمثل وثائق تاريخ المنطقة العربية منذ آدم الإنسان الأول؟! أي إن أسطورة أول الخلق وطوفان نوح، قد تأسس عليها أصول الشعوب وتواريخهم ومقاماتهم.

- حقاً!! لكنني قرأت ذات مرة ما يقول المؤرخ ويل ديورانت مؤلف قصة الحضارة عن التاريخ، جملة أعتبرها خطيرة..

" معظم التاريخ ظن، وبقيته من إملاء الهوى ".

- أظنه محقاً فيما يقول؟ فهو قد يخضع للتزوير.. بل.. لقد خضع فعلاً، وبشكل جنونيٍ مقصود.

- هناك من يحمل راية كشف الزيف ويعمل جاهداً ليل نهار ليظهر الحقائق، تساعده على ذلك الاكتشافات الحديثة دائماً في مواقع التنقيب، والتي يتسابق إلى إظهارها أو طمسها ذوو الأغراض المشبوهة على أية حال.

حبة رمل تعبر خصر البنكام.. يومٌ جديدٌ.. عمرٌ جديد.. حياةٌ تتجدد بكل أسبابها رازحةً تحت وطأة الحاجات والضرورات، ومتراوحة بين حدود الإمكانات والمقدرات..

يومٌ لي وحدي

ذات صيفٍ.. أخبر سامر زوجته أنه سيقضي نهاره في سفرةٍ قصيرةٍ إلى الغابة المجاورة للمدينة مع ثلة من الرفاق، كنوعٍ من الاستقلال الذكوري في التنزه، وأنهم سيقومون بخدمةً إطعام أنفسهم بصنع الشواء والسلطات المقبلة، وتجهيز حفلة شايٍ معتبرةٍ فوق الجمرات المشتعلة، وأنهم سيستمتعون بوقتِهم، وسيسمرون في تلك الليلة المقمرة، وسيلعبون بالورق ونرد الطاولة حتى صبيحة اليوم التالي.

صادف ذلك اشتراك سوسن وسمار في مخيم كشافيٍ طارئٍ لمدة يومٍ واحد، تقرر فيه زيارة إحدى الأمكنةً القريبةً التي تمّ استرجاعها لحضن الوطن من أيدي العابثين بأمنه وثرواته، بغية التعرف على مدى الخسائر والضرر الذي لحق بها، استعداداً لعمل دراسة تأهيلٍ تعيد لها نبض الحياة.

رحل الجميع ولن يعودوا قبل المساء.. وستبقى سلمى في البيت وحدها طيلة هذا اليوم.. كان المنزل في حالة فوضى عارمة إذ لم يكن لديهم الوقت الكافي لترتيب ما بعثروه وهم يبحثون عن لوازم رحلتهم.. قررت أن تجعله يوماً مميزاً.. يوماً غير عاديٍ لا يمت لباقي أيامها بصلةٍ أو نسب، لكونه ملكها وحدهاً، وضعت جدول أعمال وأنشطة مميزة ليومٍ مميز..

حددت لإعادة ترتيب المنزل وقتاً قصيراً تتحرك فيه بسرعة كبيرة.. ثم أحاطت نفسها بمباهجها الخاصة.. أخذت حمّاماً

منعشاً، ثم سكبت فوق ثيابها النظيفة رشات من عطرها المفضل.. جلست أمام المدفأة الحجرية لتحتسي كوباً من القهوة السادة، وراحت تصغي إلى موسيقاها الهادئة المفضلة.. أغمضت عينيها وقررت التحليق قليلاً في فضاءات مشاعرها المتلاحقة.. كانت سعيدة على نحو ما.. الانفراد مطلوب أحياناً لترميم ما يتصدع في جدران النفس خلال الصراعات مع الآخرين والتعامل معهم.. وهي تحرص أشد الحرص على أن لا تتأذى أو تحقد على أحد مهما كانت ردود أفعالهم مقصرة أو متعالية.. لكنها لا تسكت على ضيم أبداً.. تطلب حقها بلغتها العالية وأسلوبها الراقي.. تعرف حدها وتقف عنده فلا تمتد إلى ما لغيرها باجتياحٍ أو تجاوزٍ ولا تسمح لكائنٍ بالتجاوز على حدودها أو اجتياحها..

المهم.. وفي ذلك اليوم، قررت أن تفعل ما لم تفعله قط في حياتها ككسر للقاعدة والخروج من الروتين..

قررت أن تشعل لفافة تبغ.. أمسكت علبة سجائر زوجها وقلّبتها بين يديها.. قرأت..

" وزارة الصحة تحذر.. أن التدخين يسبب شيخوخة الجلد.. يقتل.. يؤدي إلى أمراضٍ خطيرةٍ ومميتةٍ.. ".

تساءلت باستغراب..

" كيف يقرأ المدخنون هذه العبارات ثم يستمرون في استخراج سيجارة وإشعالها وتدخينها.. ما دور العقل الواعي في هذه اللحظة؟ هل من غشاوةٍ تقف حائلاً بين البصر وبين رؤية

العبارة؟ هل تبصرها العين ثم يقف العصب البصري عاجزاً عن نقل المعلومة للدماغ لتفسيرها واتخاذ الإجراء المناسب؟؟ هل يعتبرها العقل حقاً في قائمة المضرات والمؤذيات، بينما تعصيه الجوارح وتتمرد علية تحت سطوة الإدمان؟ ".

ألقت جميع تساؤلاتها جانباً واستلت إحدى السجائر وأشعلتها.. لم تبتلع دخان السحبة الأولى، بل تأملتها وهي تحترق بين يديها ثم وضعتها على طرف النفاضة.. رأت خيط الدخان المنبعث من احتراقها يتراقص أثناء ارتفاعه ويتسع سحابة واهية متلوية الأطراف.. قالت متأملة هذا الاحتراق..

" أيتها العاثرة تحترقين ويستل دخانك بؤس المدمن وعثاره.. بك ينفث حمم عجزه أمام سطوتك، واستلاب مقاومته لك.. أيتها العاثرة الطاغية.. ".

احترقت السيجارة وحدها بالكامل وسقط رمادها الأسطواني أجزاء متناثرة في النفاضة.. تنهدت معلقةً..

" أمام رمادها يحترق الكثيرون.. فالحمد لله الذي عافاني من هذا البلاء.. ".

بعد ذلك قررت أن ترقص..

أوليس الرقص أحد أنواع الفنون؟!.. هي تعشق جميع أنواع الفنون، ستقوم بتأدية سلسلة من الحركات المتناسقة والمتناغمة لجسمها، بمرافقة موسيقاها المفضلة، اتجهت إلى مكتبتها الموسيقية واختارت الموسيقا المناسبة لهذا اليوم، فلكلّ

نوعٍ من الرقص موسيقاه، بعضه يتمّ بغرض ممارسة الرياضة وصقل الجسم في حالات معينة، وبعضه كما في حالة رقص الباليه يكون بهدف رواية قصة معينة.. والبعض الآخر لا يتمّ إلا بمرافقة شريكٍ في الرقصة كالتانغو أو الفالس.. البعض الآخر يلزمه فريق من الراقصين كالرقص الشعبي والدبكة.

للرقص بكلّ أنواعه مزاياه الجميلة، فهو يسمح بالتركيز على الجسم، ويساعد على تحسين صورة الذات وإطلاق الإندورفين، تلك الهرمونات المسؤولة عن الحالة المزاجية. كما تساعد الرقصات الإيقاعية على حرق السعرات الحرارية بنسبة مرتفعة..

أجمل الرقص ما كان في مجموعات، يتشارك فيها الناس الفرح والمرح.. لكنها الآن وحدها، نظرت إلى أثاث المنزل نظرةً بانوراميةً سريعة، تخيلته أشخاصاً وأكفُا ووجوهاً، انحنت للتحية ثم صرخت.. هيه.. وراحت تريد الدوران.. توقفت قبل أن تبدأ، قررت أن ترتدي زياً مناسباً، كان لديها فستاناً أخضر طويلاً مزركشاً بألوان الورود، تتراكب فوق محيطه الكبير كشاكش كثيفة ويتوسطه زنار سماوي اللون.. ارتدته بسرعةٍ وعقصت شعرها بشريطةٍ حمراء فبدت مثل الراقصات الغجريات.. ألقت التحية على نفسها أمام المرآة.. تبسّمت.. ودارت حول نفسها دورة واحدة ثم عادت إلى غرفة الجلوس، وفي مكانٍ متسع راحت تدور ببطءٍ فاتحةً ذراعيها، مبتسمة الوجه، مغمضة العينين.. كم حاولت أن تتقن رقصة المولوية بالذات، فهي تعني لها الكثير، كيف لا والمولوي

يحتضن بذراعيه الممدودتين إلى السماء فيوضاتٍ روحانية عذبة، ثم يطويهما إلى صدره وكأنه يوثق هذه الفيوضات ويحتفظ بها في سرّه، يدور وتدور معه عباءة الرقص لتوسع مساحة التناغم مع مركزية الكون المتصلة بذاتٍ واحدةٍ هي الذات الإلهية.. منها، وإليها، ومن قبل، ومن بعد،.. الأمر كله.

بعد ذلك.. قررت أن تمشي قليلاً.. أن تمارس رياضة المشي في ممرات الحديقة المجاورة للحي..

رفعت سماعة الهاتف واتصلت بجارتها كارلا تغريها بالتنزه معها.. إذ يلذّ للنفس أن تسعد أحياناً بالصحبة الطيبة، ومع الأصدقاء نبتعث سروراً وانشراحاً ونخلق أجواءً من المتعة والأنس.. اتفقتا على ذلك بعد مدة ساعة ونيف ريثما تنهي كارلا مهامها المنزلية..

جلست سلمى ترتب أفكارها.. وهي تتأمل منزلها الهادئ، المرتب، الخاوي من آثار وضجيج سكانه، ما أشد برودته لو كان هكذا بلا أولاد أو زوج، ما أشد قتامته لو لم تكن هذه الأرواح الحبيبة ترتاده ليل نهار.. تمتمت قائلةً.. " حفظكم الله وأعادكم إليّ سالمين يا أحبابي.. "

والآن.. أمامي مقدار ساعة حتى يحين الموعد مع جارتي.. ماذا سأفعل؟!

تلفتت حولها.. ما الذي لم تفعله بعد من مباهج يومها الخاص!.. أرادت أن تقرأ.. تلك المتعة الخالصة التي لا تفارقها أبداً مهما كانت زحمة واجباتها اليومية، واليوم هي في إجازة جميلة من

كلّ الواجبات، تفقدت كتب مكتبتها.. هل تقرأ الشعر أو الرواية أو الكتب الفكرية الفلسفية؟! تذكرت أنها أرادت عند الفجر أن تتدبّر آية لم تحط بمعناها جيداً أثناء التلاوة الصباحية، فتحت أحد التفاسير وراحت تغوص بين درره ولآلئه.

في الطريق إلى الحديقة المجاورة، كانت سلمى تبدو مرحةً صافية الذهن، تتأمل الطبيعة حولها وتعلّق على كلّ ما تراه وكأنها تراه لأول مرة.. سُرّت كارلا بهذه الحالة المزاجية الرائقة وقالت تثني على جارتها:

- الحمد لله، أراك اليوم تتوهجين كثريا في وسط غرفةٍ باذخة، تتألقين كنجمة سقطت على قمة شجرة.

- أنا اليوم أغترف من مباهجي الخاصة ليومٍ خاصٍ بي، ولقد أردت مشاركتك الاندماج بالجمال الطبيعي حولنا.

- شكراً عزيزتي.. فعلاً.. كثيرة هي الأشياء التي نحبّ أن يشاركنا فيها الأصدقاء.

- التنزه أحدها.

- واحتساء القهوة الشهية.. أتذكرين حديث قهوة الأديب؟!

- نعم.. نعم.. والرقص، قراءة كتاب بغية النقاش فيه، مراقبة الغروب على شاطئ البحر، تسلّق الجبال.

- اتركي لي فرصة ذكر أشياء أخرى..

- حسنٌ.. تفضلي.

- السهر في ليلة بدرٍ ساطعٍ.

- أحسنت.. أنا أعشق النظر إلى القمر البدر برفقة من أحبّ.

- المشي تحت زخات الغيث المبارك، واللعب بالثلج مع تأمل وجه الأرض المغطى بثوبها الأبيض الناصع.

- التقاط الصور التذكارية عند شلالات مياه، أو قرب شاطئ، أو في غابة ساحرة.

- آهٍ يا سلمى، جميل كلّ ما ذكرناه، ولكنه الوجه الجميل السعيد في هذه الدنيا، وكم من تعاساتٍ تفقدنا الاستمتاع بكلّ هذا الجمال وهذه الروعة.

- أنا لا أُنكر وجود الوجه الآخر، القبيح ربما.. لكننا تعلمنا كيف نتعامل معه بمزيدٍ من الصبر والحكمة والرضا بقضاء الله فينا.

- لكننا لا نحسن ذلك دائماً، تمنعنا طباعنا وعنجهية نفوسنا ورواسب تجاربنا.

- أصبت.. ولكن هذا إن تركنا أنفسنا على سجيتها البدائية، ولا أقصد فطرتنا، فالفطرة خلقت سليمة، ولكن أقصد الفجاجة التي لم تُشذب بوعي، والعشوائية التي لم تُضبط بتدريبٍ، والفوضى التي لم تُهذب بنظام، والغفلة التي لم تُعدّل برشد، والتعامل الذي لم يزيّن بمكارم.

- كم أشكر الله أن رزقني جوارك الطيب، أنا أتعلم منك في كلّ مرة أراك فيها شيئاً جديداً.

- لله الفضل والمنة، وله الحمد والشكر على ما آتاني.. ولكن صدقيني فكلنا نتعلّم من بعضنا، المهم أن نعيش مفتوحي الأعين.

اقترب موعد عودة أبنائها.. جهزت لهم الطعام.. لملمت بقايا متعة يومها الخاص.. جميلٌ أن يكون للمرء يومه الذي لا يشاركه فيه أحد.. فلا واجبات، ولا مسؤولية، ولا عيونٌ متربصةٌ رقيبةٌ تتسلل إلى مساحاته الخاصة وتدخل في تضاعيف حريته الشخصية.. راحت تحدّث نفسها..

" سبحان الله.. وحده الله.. الله اللطيف الرقيب يطلع على السر وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، سميعٌ بصيرٌ حسيبٌ، لكننا لا نضيق باطلاعه علينا ولا يتشكل النفور لدينا من قربه الشديد، الذي هو أقرب من حبل الوريد.. إن الإنسان الآخر هو المشكلة.. لقربه حدود، ولتجاوره نطاق محدود.. إن تداخل الهالات أكثر مما ينبغي تصيب بالإزعاج والإرباك.. تماماً مثل تداخل أشواك القنافذ إذا اقتربت أكثر من اللازم.. تذكرت مقولة " الجحيم هو الآخرون ".. ربما.. ولعلها مقولة لا تجانب الحقيقة في بعضٍ من جوانبها.. لكنها ترى في كلّ الآخرين مقدارين من النعيم والجحيم.. قد يتساويان أو لا يتساويان، يعتمد ذلك على ما نحبّ أن نراه فيهم، وما نطمع أن نأخذه منهم ".

عاد الأبناء في المساء وقد علاهم غبار الرحلة، فاغتسلوا، وأكلوا، وراحوا يغطون في نومٍ عميقٍ، وقد استبد بهم التعب والإرهاق..

وجدت نفسها وحيدة مرة أخرى، فزوجها لن يعود قبل الصباح.. وكان مساءً مختلفاً.. عمّ الهدوء أرجاء البيت وتاقت نفسها للاستمرار في ممارسة طقوس يومها المميز.. خرجت إلى الشرفة.. الليلة مقمرة وشعاع البدر يلامس صفحات كلّ الأشياء حولها، أوراق الشجر، واجهات المباني المتناثرة في الضاحية، القناديل المضاءة المعلقة على الأسوار.. وضعت كلتا يديها على حافة الحديد المشغول ورفعت رأسها تتأمل وجه البدر.. تذكرت صوت فيروز يصدح بجملة..

" قد وفّى بموعده حين خانت البشر "

مواعيدُ وفاءٍ كونية.. للشمس كل صباح، للقمر البدر منتصف كل شهر قمري، كما هو اليوم في اكتماله بدراً منيراً ساطعاً.. وها هي قد راحت تعيش معه حالة مدّ وجزر.. وإذا كانت حركات المد والجزر تعمل على تطهير البحار والمحيطات من كل الشوائب، وتطهّر مصبات الأنهار والموانئ من الرواسب، فهي اليوم تمحو من داخلها كلّ الأدران والندوب التي تخلفها العلاقات مع الآخرين، وتعلن الغفران والصفح.. وإذا كانت حركات المد والجزر تساعد السفن على دخول الموانئ التي تقع في المناطق الضحلة. فهي الآن وفي هذه اللحظات المقمرة البديعة، تفتح الطريق لعبور انتصاراتها فوق ضحالة بلادة الأيام وروتينها الاعتيادي.

وبما أن نسبة ارتفاع المد وانخفاض الجزر تختلف حسب مناطق الكرة الأرضية، فتكون في بعضها أكثر من ٢٠٠ سم، وفي أخرى لا تزيد عن ٣٠ سم، فهي الليلة سترفع منسوب سعادتها إلى أقصى مداه.

في تلك اللحظات الساحرة امتدت مشاعرها الفياضة لتغمر مساحاتٍ من الماضي فتُغرق فيها كهوف وأغوار سحيقة من نفسها.. هناك حيث تقبع بعض الذكريات المدفونة المؤلمة، والتي تطلّ برأسها بين الحين والآخر لتثبت وجودها المنسي.. تذكرت يوم مزّق لها زوجها دفتر مذكراتها وخيّرها بينه وبين الاحتفاظ به، كان ذلك في بداية زواجهما، لماذا؟! لمجرد أنه كان يغار حتى من ذكرياتها، وقد أراد أن يقطع صلتها بمن وبما دونه، ويتركها جرماً سماوياً يدور في فلكه وحده.

تذكرت يوم أرغمها والدها على إعادة مجموعة الألوان التي اقتنتها من مصروفها الشهري إلى المكتبة التي اشترتها منها، لأنه كان يكره الرسم ويعتبره بعض إثم.. تذكرت بعض الألفاظ الجارحة التي كانت تتحدر من فم أخيها أثناء غضبه الشديد لعدم تلبية متطلباته المتلاحقة، ونعته لها بتافهة أو بليدة.. كلمات كانت تنهال قاسية على روحها الطيبة كشظايا زجاج مكسور.. لكنها اليوم وفي هذا البيت سيدة متوجة وملكة آمرة ناهية مطاعة.. وغيرها.. وغيرها من مواقف.. من هذا.. ومن تلك، كانت تجد نفسها فيها كالقابع بين المطرقة والسندان، تتلقى الصفع فتستوعب وتحتوي الصدمة حرصاً منها على علاقتها بمن حولها.. القمر في ليلة البدر هذه يرفع مستوى عواطفها ليغمر مساحات الحزن والألم، يطمرها تحت أمواج

التغاضي والسلوان ويطهر قيعانها من الأسى بكل ما تملكه من طيبة حقيقية ومعدن أصيل.. في تلك الليلة قررت أن تغفر للجميع، وأن تجلو صفحة قلبها من أي شائبة أو كدر.. سامحت الجميع وتعالت فوق آلامها بكرمٍ وسخاءٍ.. هي قد وجدت ذاتها.. وجدتها في منأى عن أدرانٍ الغضب أو الحقد، تغتسل حقاً بشلالات نور التسامح والمحبة.. حمدت الله.. أن روحها ترتقي إلى مصاف الراضين بما قسم لها، لا يخالجها تذمر أو سخط.. تذكرت كيف كان القهر أحياناً يعكر صفو حياتها.. أو ربما هكذا كان يخيل إليها.. وكيف كانت تدعو الله باسمه القهار مستمطرة للمزيد من حالات القهر.. ولكن حين تعلمت أن تجليات أسماء الله الحسنى تعتمد اعتماداً كبيراً على ظنّ العبد بربه.. فتحت عينيها جيداً لتبحث عن أسرار بقية الأسماء.. التسعة والتسعين؟!!.. يقال أنها أكثر من ذلك بكثير.. أسماء ذات، أسماء صفات، أسماء أفعال، المهم.. أتراه العمر يكفي لشهود تجليات كل أسمائه؟؟ أتراها تقدر أن تستلهم من كل اسم أطياف معرفة لتنفعها في التحلي بما يليق بالسالك طريقاً إلى الله وبالباحث حقاً عن رضوانه.

وبما أن الله سبحانه يتجلى على قلب العبد بهذه الأسماء مع كلّ نفَسٍ، بالاتصال المباشر عن طريق قنوات ممتدة صاعدة ونازِلة، الصاعدة تعطي في كلّ لحظة حال العبد، وحال استعداده، وما يتطلبه من حاجةٍ إلى اسم إلهي معين أو ربما أكثر في وقت واحد.. والنازلة تعطي التحكمات التي تؤثر بها هذه الأسماء على العبد.. راحت سلمى تبحث في أحوالها المتعددة وحاجاتها، عن تجليات أسماء الله الحسنى عليها، وقد

اتخذت لنفسها عهداً بالتعرف على معاني الأسماء.. اسماً.. اسماً..

وراحت تأخذ من أسرار بعضها، ما يزيّن حياتها.. ويهديها سبل الرشد.

طافت حول معاني اسم السلام.. كلّ من سلِمَ قلبه من إرادة الشر، وكلّ من سلمت جوارحه من ارتكاب الإثم، وسلم عقله من أسر الشهوات فهو الذي يأتي الله بقلبٍ سليم.. أتراها تحمل هذا القلب السليم الذي تخفف من كل أثقاله وأدرانه؟!.. العزيز.. إنه الذي يندر وجود مثله، وتشتدّ الحاجة إليه، فما أجمل أن يحتاجك الآخرون في أهم أو كلّ شؤونهم الحياتية لتكون لهم كالمشكاة أو السراج.. كم يلزمها من جمع المعارف والأحوال لتكون على قدر ذلك الاحتياج؟! والأهم في جملة الآخرين هنا أولادها، ولعلها كانت ولا تزال كالمشكاة أو السراج بالنسبة لهم.. الجبار.. الذي ينفذ مشيئته على سبيل الإجبار على كلّ خلقه، ويمنحهم دون غيره أقداراً تجبر كسرهم، وإذا كان هناك من الناس من تفردّ بعلو مرتبته ليكون متبعاً لا تابعاً، يفيد من حوله دون أن يستفيد منهم، ويؤثر فيهم ولا يتأثر بهم، فلعلها تحاول منزلة كهذه في بيتها، مملكتها على أقل تقدير!.. الغفار.. من يظهر الجميل ويستر القبيح، وبما أن محاسن المخلوقات تتساوى مع قبائحها، على الدوام، وفق قانون الأواني المستطرقة، فإن هذا الاسم يتجلى في كيان المتصف به بالتغافل عن المساوئ وذكر المحاسن، وبستر ما يجب أن يستر.. ولعلها هي تقترب حثيثاً من طبع التغاضي عن الآخرين والاكتفاء بإصلاح ذاتها!.. الوهاب.. من كثرت

عطاياه لا لعوضٍ أو غرض، وهذا ما يلزم لعطاياها المختلفة لكل الناس أن يُقصد بها وجه الله خالصة لا يشوبها حظٌ عاجلٌ أو آجل.. تذكرت يوم أن ساعدت جارتها في منزلها القديم على إتقان حرفة الحياكة، لتقوم هذه الأخيرة بنكران ذلك أمام الجيران.. لقد استطاعت يومها أن تكتم رغبتها بمديحٍ عابرٍ، وأن تعود بنيّة عملها ذاك إلى ابتغاء رضوان ربها.. العليم.. والذي من كماله أنه يحيط بكلّ شيء علماً.. ويزداد الإنسان شرفاً بمقدار ازدياد علمه ومعارفه، وأفضلها معرفة الله تعالى.. وها هي تغوص بحثاً عن أسرار معرفته.. السميع.. يسمع السرّ والنجوى وما هو أدقّ من ذلك وأخفى، على أن يكون حظّ المرء من طيف هذا الاسم حفظ لسانه أن يقول ما لا يرضي الله، وأن يُقصر سمعه / عامداً / على الجميل المفيد من القول.. وها هي على دروب الالتزام بهذا المبدأ أحرص ما تكون.. البصير.. من لا يعزب عنه حتى ما تحت الثرى، ليكون صداه لديها أن تحفظ العين أن ترى ما لا يرضي الله، لأن من قارف معصية وهو يعلم أن الله يراه فقد تجاسر وخسر، وأن يكون في نظره العبرة دوماً، تدلّه وتهديه وتشرح له سنن الأولين، وهي قد آلت على نفسها أن تستحيي من أن يراها الله في مكان سوء لا يليق.. الحكَم.. لا رادّ لحكمه ولا معقب لقضائه.. فهل تراه يكون فهمها لهذا الاسم أن المقدور كائنٌ.. وأن الهمّ والحذر لا يدفعانه، وبهذا يغدو العمل سفينة النجاة التي لا تتوقف عند السلبية أو الاتكالية أو الانهزامية، بل تمخر عباب الحياة بما أوتيت من أسباب، على مبدأ " وقل اعملوا "؟!..

وهنا.. هنا رست سفن أفكارها طويلاً قبل أن تبحر في خضم ابتلاءات الحياة، لتظلّ مقدامة لا يثني عزمها همٌّ أو فشلٌ أو فقْدٌ.

اللطيف.. من أعطى عباده فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة، يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعيٍ خفيفٍ في مدةٍ قصيرةٍ هي العمر، وتمثلاً لجمال هذا الاسم قررت اعتماد اللطف في النصح والعتب، واتخاذ أسلوب القدوة الحسنة لجذب الآخرين إلى مواطن الخير.. الخبير.. عليمٌ ببواطن الخفايا، ومن لم ينفعه حدسه لم ينفعه علمه.. الحليم.. الذي يشاهد معصية العصاة ويرى مخالفة الأمر ثم لا يستفزه غضبٌ ولا يعتريه غيظٌ ولا يحمله على سرعة الانتقام مع الاقتدار عليه عجلة أو طيش.. فهل تراها قادرة على أن تتحلى بحلم وتقدر عليه؟ ليتها تستطيع، ليتها تقدر!.. الشكور.. يجازي بقليل الطاعات كثير الدرجات، وبيسير العمل في أيام معدودة نعيماً أخروياً غير محدود، والمرء يكون شاكراً للآخرين إذا أثنى عليهم وامتدح إحسانهم، وإذا جازاهم بأكثر مما قدموه له، وبهذا يكون أحسن وجوه الشكر لنعم الله أن تستعمل في طاعته لا في معصيته.. الكريم.. إذا قدر عفا، وإذا وعد وفى، وإذا أعطى زاد على منتهى الرجاء لا يبالي كم أعطى ولمن أعطى.. الرقيب.. من راعى الشيء حتى لم يغفل عنه، والمراقبة تحمد إذا كانت لربه ولقلبه، فيسد المنافذ على أعدائه اللصيقين به، نفسه وشيطانه.. المجيب.. يدبر أسباب كفاية الحاجات.. والمرء ينبغي أن يكون مجيباً لربه أولاً.. فيما أمره ونهاه، ثم للآخرين بما يقتدر عليه، دون منٍّ أو انتهار إن قدر، ودون تأففٍ وتذمرٍ إن عجز.. الحكيم.. ذو الحكمة.. ومن أوتي الحكمة فقد أوتيَ خيراً كثيراً،

لكن المرء قادر على اصطيادها في مظانها، وأولها ورأسها مخافة الله، وهي تعتبرها ضالّتها أين ما وجدتها فهي أولى بها.. لا تكتفي بلقاءٍ غير مقصودٍ ولا مدروس، بل تبحث وتنقب، وتتوسع وتطلب، وتحاور وتناور.. الودود.. يحب الخير لجميع الخلق يحسن إليهم ويثني عليهم، والودود من الناس من يريد للبشر ما يريد لنفسه، بل من يؤثرهم على نفسه.. وغيره.. وغيره.. وعلى قدر اتساع معرفتها بمعاني الأسماء قررت أن يكون حظها منها ما تتحلى به وما تعاهد نفسها أن تقوم به إيقاناً وامتثالاً.

كررت بلسانها.. وبقلبها.. مقولة زرعها اليقين التام في وجدانها..

" اللهم إني أشهد أنه لا يعطي ولا يمنع سواك.. ولا يُذل ولا يرفع سواك.. ولا يصل ولا يقطع سواك "..

تساءلت ثانية..

" هل يكفي العمر لتلقي فتوح الغيب حول أسرار كل الأسماء.. إننا نتقلّب بين حالاتنا وأطوارنا على مدى العمر، تكتنفنا خلال ذلك التقلب العديد من المشاعر والأحاسيس، نتأرجح بين الفرح والحزن، بين الأبيض والأسود، بين المد والجزر.. بين الانقباض والانبساط.. ترى أنحن الشاهدون على هذه الدنيا أم هي الشاهدة علينا؟.. لا بل تشهد علينا الصوامت فينا، أيدينا وأرجلنا وجلودنا.. حقاً.. ما نحن إلا أعمالٌ مدونة، في حيز الزمان والمكان في بقعةٍ ما... ولحظةٍ ما ".

طال سهر سلمى وغالبها النعاس فاستسلمت لنومٍ عميقٍ بعد أن أمضت يومها الخاص بنكهة الفردية الخالصة.. بعد سويعاتٍ.. تسللت أشعة الشمس من بين ستائر غرفة نومها لتوقظها متلهفةً تتطلع إلى عقارب الساعة.. كاد النهار أن ينتصف، تلفتتْ حولها باحثةً عن آثار عودة زوجها المنتظرة، نهضت مسرعةً واتجهت تبحث في أرجاء المنزل.. سمار وسوسن ليسا في غرفهما، قد ذهب كلٌ منهما إلى شأنه، تسرّب القلق إلى نفسها وهي تتذكر آخر الكلمات التي قالها سامر..

" سنعود بإذن الله في الصباح الباكر "..

نظرت في جوالها تبحث عن مكالمةٍ فائتةٍ وصلت منه، ثم حاولت الاتصال به لتجد جواله خارج التغطية، خرجت إلى الشرفة تستطلع شأن الشارع وتستشرف آفاقه.. قررت أن تتصل بابنها لتسأله عن أبيه.. لكنها لم تصل إلى أية نتيجةٍ مطمئنة..

بدأت خطواتها تفقد هدوءها، واعتلى أعصابها التوتر والاضطراب، وهي تذرع منزلها جيئةً وذهاباً.. وقد حامت فوق رأسها طيور أفكارٍ سوداء تنذر بخطرٍ ضبابيٍ جثم فوق صدرها.. هل ثمة مكروهٌ قد حصل له؟! هل ستسدد الحرب اللعينة التي سكنت خلايا بلدها منذ أعوامٍ كسرطانٍ خبيثٍ قاتلٍ سهمها المسموم إلى حياتها كما فعلت بالكثيرين، إن لم يكن بكل الناس؟! هل جاء دورها لتتجرع كالباقيين كأس البلاء والمرارة والفقد؟!.. أرهقتها أسئلة وتساؤلاتٌ من هذا القبيل، إلى أن اتصل سمار بها لينقل لها خبر وجود والده في المشفى إثر إصابته ورفاقه بشظايا قذائف الغدر التي تتساقط فوق المدينة

الآمنة لتحصد أرواحاً حان أجلها، أو لتتسبب لآخرين بعاهاتٍ ومصائب وتشوهات.. وها هو سامر الحبيب اليوم أحد ضحاياها.. دون أن تعلم مدى إصابته.. بكت سلمى كثيراً، قبل أن تذهب لرعايته في المشفى، وتوسلت إلى ربها أن يحفظه ويسلمه لها ولعائلته.. احتسبت مصيبتها عند الله، وأعدّت لها صبراً وتسليماً ورضا.. فمن ذا الذي يأمن غدر الزمان؟! من يسلم من مكر الأيام؟! من يملك أن يستأثر بكل ما يسرّه فحسب؟!!.. ما من أحدٍ قادرٌ على ذلك إطلاقاً.. بل إنها الأقدار تباغتنا بما يعكر صفونا، ويفسد سلامة حالنا، وتأبى علينا إلا أن يزول كل حالٍ مهما طالت مدة بقائه.. لنغدو كالكرة في كثير من الأحيان.. تتقاذفنا تناقضات الحياة، وتصاريف الأقدار، وألوان من العيش مشوبةٌ بالخيبة والخذلان، وبالفرح والنشوة.

اجتمعت الأسرة الصغيرة حول سرير الأب المصاب وقد تمّ نقله إلى المنزل ليكمل علاجه الفيزيائي ونقاهته بين أفراد أسرته.. وتناوب الجميع بحبٍ وتفانٍ على خدمته ورعايته إلى أن تماثل للشفاء.

حبة رملٍ أخرى تعبر مضيق البنكام.. رصيدٌ نسحب منه باستمرار.. لكنه قابلٌ للإيداع حتماً، حين تملأ يومك بعملٍ يمتد نفعه للآخرين..

مع الجد أبي سلمى في رحلة حب

رفع الكلفة ضمن نطاق الاحترام المتبادل هو سياسة رقيقة لا يتقنها الكثيرون.. لكنها تؤتي أكلها كل حين في قلب الحفيد الأثير سمار..

سمار صديق جده لأمه.. كان يبثه أشجانه بأريحية، ويفكر معه بصوتٍ مرتفع، وكان الجد الحنون المتفهم يتقن فن الإصغاء، ويملك موهبة الحوار الجميل.. يفتح له بوابات الحديث الصريح بجملته المعهودة دائماً " بُني.. نحن كالمرايا ".. نحن كالمرايا نتراءى على صفحاتها، ونعكس صور بعضنا بعضاً، صوراً لا تتطابق إطلاقاً، بسبب وجود الفروق والاختلافات، مهما تشابهنا، وانسجمنا، وتناغمنا.. إن صفحات وجوهنا تعكس هيئة الانفعال بمن نراه، وبما نراه.. وبريق عيوننا يشي بردّات الفعل ومنعكسات العاطفة والشعور.. والمرايا على كثرة أنواعها، من مستوية، متقعرة، محدبة، ومتشظية، يرتسم شكلنا عليها، آنياً، لا كما هو على حقيقته المطلقة، فلا حقيقة مطلقة تصف النفس البشرية إلا في لحظة راهنة جداً، قد تكون منفصلةً عما قبلها وما بعدها.

المتغيرات واقعة في كلّ آن، متلاحقةٌ في كلّ آن.. في ظروفنا، في إمكاناتنا، وحتى في دواخلنا.. ونحن في حالة شهودٍ مستمر لها.. قد يكون شهوداً إيجابياً فاعلاً، يستدرك السلبيات، ويستثمر الطاقات، ويصنع المعجزات.. وقد يكون شهوداً سلبياً انفعالياً لا فاعلاً، يتخذ دور المتفرج فقط لا غير، فتتقاذفه

الأحوال والظروف دونما سيطرة عليها، ويستسلم لها بدوره كريشةٍ في مهب الريح.

وحين أدرك الحبّ قلب سمار، قرر أن يأوي إلى مرآته الحبيبة، جده، نظر في عيني جده ثم سأله سؤالاً مباغتاً:

- هل تحبّ يا جدي؟؟

تبسّم الجد ابتسامته الحانية.. ثم تحسس بيده اليمنى صدره جهة القلب، أراد أن تلتقط أنامله صوت خفقه، أن يسمع بباطن كفه اعترافاً بحالة حبّ ما.. ضغط بيده أكثر فأكثر، أصاخ السمع، أغمض عينيه وغاص في داخله يلاحق نبضات قلبه.. ترى هل صار النبض واهناً بطيئاً يتناسب مع حركته، وسني عمره؟!.

ساد صمتٌ لطيفٌ، قصيرٌ... ما كان للسؤال مدى محظورٌ في فضاء علاقتهما، وما كان للحرج أن يغيّب أية إجابة لأي تساؤلٍ.. لمعت عينا الجد ببريق مختلف.. وهل كالحبّ من باعثٍ للمعة العين؟! وهل كوقدة الحبّ من وقدة واشتعال؟!.. أجابه مبتسماً:

* بلا حبٍّ نحن نهوي إلى قاعٍ موحشٍ من الوحدة، بلا حبٍّ نجفُّ مثل ورق الخريف ونتساقط فوق رصيف العمر تذرونا العزلة والخواء.. من قال إننا إذا كبرنا لم نعد نحب.. من قال إننا إذا هرمنا لم نعد نحتاج.. من قال إننا إذا غطى الشيب رؤوسنا لم نعد نشتاق أو نحنّ.. المخلوق البشري يا بني يتنفس الحبّ مع أول ذرة أوكسجين تدخل رئتيه عند الصرخة الأولى، ثم لا يتركه أبداً، المخلوق البشري لا يعيش بالغذاء وحده، بل

يرضع الحبّ مع أولى قطرات الحليب.. وسأزيدك من الشعر بيتاً ومعنى.. فحتى الجنين في رحم أمه، يستشعر القبول به والرضا بوجوده، وهو يقابل بيده يد أمه حين تتحسس بطنها، ويستجيب بحيويةٍ لملامساتها.. نحن نحبّ ما دامت القلوب في صدورنا تتحرك، نحبّ ولكن طريقتنا في التعبير هي التي تتغير، فتغدو أكثر وقاراً واتزاناً.

- جدي.. جوابك الفلسفي هذا عموميٌ إلى أبعد حد، بصراحةٍ جدي، إن فيه من المراوغة أكثر مما فيه من الإجابة، لم يقنعني، لم يكفني، لا.. أبداً.. أنت لم تجبني.

ضحك الجد وأشرق وجهه ثانيةً:

* حسنٌ يا بني.. تريد اعترافاً يشبه اعترافات المراهقين.

وبمكر الأحفاد المحبب قال سمار مؤكداً:

- شيءٌ من هذا القبيل، إن كان لديك ما تعترف به يا جدي.

* أنا أحب صبّوحة، ذات الأعوام السبعين، العجوز التي رافقتني أكثر من نصف قرنٍ من الزمان، صدقني.. قد يعيش الحبُّ عمراً طويلاً جداً إذا أحسن المرء صيانته والاعتناء به.

- ألم ينفد؟! ألم يخمد؟! ألم تسكن حرارته؟! ألم يلفظ أنفاسه؟! أم لعله قد تحوّل إلى شيءٍ آخر؟

* مثل ماذا؟

- كالاعتياد مثلاً، كالألفة، كالتعايش، كالاحتياج، أو ربما كمجرد الرضا بالقدر؟!.

* هذه مسمياتٌ حقيقيةٌ لروابط أسرية، تُظهر بعض جوانب الحبّ.. الاعتياد أخطرها - الاعتياد.. آفة من آفات الزمن، أتخيله مديةً ذات حدين.. ولعله لا يعدو أن يكون تشبيهاً قاسياً لا يليق بشعورٍ حيادي.

- كيف يكون حيادياً وهو يقتل دهشتنا، ويغتال انبهارنا، يُخمد شعلة حماسنا، ويساهم في نمطية العيش بروتينٍ فظيع؟!!حين تعتاد شخصاً يبدأ بفقدان بريقه لديك، الاعتياد يتسلّل إلى نفوسنا كلصٍ بارعٍ ليستلّ من رونق الحب لهفته، ومن جمال الحضور بهجته، معَ الاعتياد تميل خفقات قلوبنا إلى الانتظام في طابور الرتابة و الملل، بينما يغادرها جنون الانفعال واضطرابه..

* تماماً.. لقد وصفّته بشكل دقيق.. ولهذا فقد كنت دائماً أقول لجدتك..

" حبيبتي.. لا أريد أن أعتادك كما تعتاد الطيور أقفاصها، فتغرد داخلها دون فتنة الأغصان وحيوية الفضاء، لا أريد أن أعتادك كما يعتاد المرء معالم الطريق إلى عمله، فلا يكاد يبصرها كل يوم، ليتك تكونين في كل لحظةٍ أنثى جديدة، تشدني، تجذبني وتُغنيني.. وليتني أكون في كل آنٍ رجلاً مختلفاً، يبهرك، ويملأ حياتك "..

أنا أكره الاعتياد وأرفضه.. وأميل إلى أن نمارس التجدد عند حافة كلّ أمر، وأن نختلف عن أنانا قبل كلّ حين من الآن، وأن نكون غيرنا ً بالأمس.

- كم من الأوقات الثمينة يهدرها العالم بأكمله وهو يبحث عن الجديد.. الجديد في كلّ شيء.. في الأزياء، ديكور المنازل، إعداد وجبات الطعام أو الحلوى، في ابتكار ألعابٍ ورياضاتٍ ومغامرات، في تحديث تكنولوجية الأدوات الشخصية مروراً بالهواتف الذكية إلى السيارات والمنازل العبقرية..

* كلّ ذلك هرباً من كابوس الاعتياد.. اعتياد الأشياء والأحياء.

- صدقت جدي.. ولكنني كنت أسألك عن الحبّ كعاطفةٍ خاصة تتغلغل في أعماقنا تجاه نصفنا الآخر.

* وهل وجدت نصفك الآخر يا سمار؟

- وبهذا يصبح السائل مسؤولاً يا جدي، أم لعله نوع من التهرب.

* أنا لا أتهرب من الإجابة.. اعلم أنني مذ أحببت صبوحة قبل أكثر من خمسين عاماً، وأنا أعيش ذات العاطفة، لقد ملأت عيني إلى درجةٍ لم أعد أرى بعدها من محاسن نساء الأرض شيئاً، حتى اللواتي تعرضهن الشاشات بكثير من التبرج والتزيين، أراهنَّ صوراً لا روح فيها، وأجد في جدتك ما يضاهيهن جمالاً، كما ملأت قلبي بالمزيد من مشاعر الامتنان والسعادة، من خلال صدق اهتمامها بي وانشغالها بإسعادي،

وكنت أحرص بالتالي على إسعادها وإدخال السرور على قلبها بكل ما أوتيته من عزمٍ ومحبة.. وأنت بُني؟

- جدي.. لم أعد صغيراً.

ضحك الجد وربت بكفه على كتف حفيده..

* حتى الصغار يحبون، فلا تربط الحب بذلك..

- أنا أريد الارتباط بمن أحب.

* هذه هي نقطة التحول الجوهرية في هذا الموضوع.

- من حقي.. أليس كذلك؟ ألم يتزوج أبي من أمي ابنتك.. بعد حبٍ دام خمسة عشر عاما.

* أيضاً لا تربط مطالبتك بحقك بما ناله غيرك.. دافع عن اختيارك وتفرّد بطرح ما تريد لأنك تريده، لا لأن غيرك قد حاز مثله.

- أواهٍ يا جدي لا تفوتك فائتة.

* ستكسبك الأيام خبرة كمال الانتصار لحقك، اجعله حباً يا بني ولا تتركه يغدو احتياجاً.. فعندما تبدأ حدود الاحتياج تنتهي حدود الحب.. وحين تعصف بنا أهواء ورغبات وحاجات يتوقف الحب عن كونه سيد الموقف، ينزوي في ركنه القصي متلفعاً بوشاح النقاء الصرف، متفرداً بخاصية التوحد وعدم التشاركية.. كلّ الحب وأينما وجد، يبدأ لحظة الاستغناء..

ففي جميع العلاقات، بين الأشقاء، بين أبٍ وابنه، أم وابنتها، بين زوجٍ وزوجه، بين أصدقاء أو نسباء، طالما تربعت احتياجاتٌ مادية واتخذت أمكنتها على مسار العيش فقد تولدت وظهرت معانٍ جديدة وجوانب مختلفة وتسميات أخرى.. فلندعوه احتراماً متبادلاً، تعايشاً مشتركاً، آصرةً صادقةً ما فوق الرسميات، اهتماماً.. نوعاً من السيطرة والتحكم، نوعاً من التملك والأنانية، ولن نعدم مسميات أخرى تطل برأسها لتتبوأ مكان الحب وتفخر باغتصاب منزلته وانتحال صفته.. ويظلّ للحب مذاقه المميز.. العزيز.. النادر.. مذاق آخر لا يعرفه إلا.. النادرون عشقاً.

هناك من لا يحب أباه.. ومع ذلك يحرص حرصاً شديداً على استرضائه والإحسان إليه.. ويبقى الحب مختفياً في صورة هذه العلاقة.. وهناك من لا يحبّ زوجته، إلا أنه يستمرئ عشرتها ويواصل الرضا بقدره دون أن يؤذيها بما يمتلكه من أخلاقٍ عالية، وهكذا فكل الروابط البشرية بالمطلق ليست ضامنةً دوماً ولا كافيةً حتماً لوجود شيءٍ اسمه الحبّ... الحبّ شيءٌ آخر.

- جدي.. ما أروع الإنصات إليك، كأنني أسافر على بساط الريح إلى آفاق لا حصر لها.

حبات الرمل.. تمر تباعاً.. تباعاً.. واحدة إثر أخرى.. يستحيل مرور اثنتين في لحظة واحدة.. هو العمر كذلك تتقاطر لحظاته.. أيامه.. ساعاته.. ثوانيه..

لا يمكنك العودة إلى الوراء أبداً.. وحتى لو مررت بذات المكان مرتين، فلا أنت هو من مر فيما قبل، ولا المكان هو نفسه، وقد ازداد سنّاً، واختلف هواءً، وتحوّل فراغاً..

سياحة فكرية

جلست سلمى على الأريكة المقابلة للتلفاز.. أمسكت جهاز التحكم وراحت تتنقل بين القنوات الفضائية في سياحة عبثية لا غاية لها.. آه.. مما وجدت.. بل.. من أكثر ما وجدت.. فمن كوارث طبيعية.. فيضانات واسعة، زلازل مدمرة، وحرائق ممتدة.. إلى كوارث بشرية.. حروب طاحنة، تفجيرات إرهابية، واقتتال على جميع المستويات.. إلى إعلام فاسد مفسد وفن هابط مسف.. يا لتفاهة الدنيا حين نراها على هذه الصورة القاتمة.. حقاً.. تعلمنا الكوارث أننا لا نملك شيئاً من الدنيا.. بل أن امتلاكنا للأشياء حولنا عابر ومؤقت.. ونحن مجرد عابرون..

المكان ثابت.. ونحن العابرون.. وفي العبور يصطادنا الحنين إلى المرابع الأولى.. لقد انتقلت من بيتها الصغير في قلب المدينة بعد أن عاشت فيه بضع سنين، بيتها الأول الذي أحبته من كلّ قلبها، وتركت فيه من الذكريات أجملها، إلى منزلها الواسع هذا في الضاحية الغربية ..

الزمان ثابت.. ونحن العابرون.. يقولون الحياة كالدولاب.. بلى.. ونحن على أطرافه، تارةً فوق، وتارةً تحت..

يقولون نحن كالأشجار.. نَعرى حيناً، ونُكسى حيناً.. بلى.. نحن كذلك.. ويقولون لتقلّب ظروف الحياة فعلها الصامت يوماً، الصارخ يوماً آخر.. بلى.. هو كذلك..

راحت تكتب:

".. ثمة ما أريد قوله.. لكنه الآن يستعصي على الإفصاح ويراوغ في الاختفاء.. يتخلف عن الظهور كفكرةٍ لمّا تتبلور، ولم تظهر علامات نضجه بعد.

قررت أن أصطحب صديقيَّ القديمين.. الدفتر والقلم.. وأن أرحل بهما إلى نهاية الرحلة.. هما مطواعان إلى أبعد حد فما استنكرا حالة ولا تأبيا عن بوح.. أراني أُذعن بهما لكل حبة رمل تعيش مخاض السقوط بين زمنين.. ما قبل اللحظة، وما بعدها.. نعم.. تسقط بشكلٍ نهائيٍ ولمرة واحدة في حياتها.. مرة لا تتكرر قط.

بنك الأيام يفتح لك حساباً جارياً.. وحبات رمل البنكام تتساقط تدريجياً في ممر اللاعودة.. مخيفة هذه الحقيقة.. حبة في إثر حبة.. لحظة في إثر لحظة.. دون عودة ولا رجوع.. دون تباطؤ أو إمهال.. تمر.. وتمر وتمر .. رصيد يسحب بانتظام من بنك الأيام.. وحبة حبة تعبر البنكام..

الأمر شخصيٌ للغاية، وخطيرٌ إلى حدٍ بعيد.. هي المسؤولة الوحيدة عن قيمة أيامها، وعن " كم وكيف " هذه القيمة.. عمر الإنسان رأسماله الخطر، وهو المسؤول والمالك الوحيد حصرياً، لحقوق إنفاقه.. بخساً أو اغتناماً.. أولسنا المأمورين باغتنام خمسٍ قبل خمس.. الصحة، الفراغ، الشباب، الحياة والغنى.. قبل السقم والشغل والهرم والموت والفقر.. أفتستبدل ما له قيمة

عظمى بما دونه؟!! أتترك العمر النفيس يذهب هدراً لاعتباراتٍ شتى، تتناهى في آخر الأمر إلى لا شيء؟؟!!! أنستبدل بالثمين الرخيص البخس.. لاسيما وأن هناك على حدود النهاية ثمة سؤال خطير يتربص بأعوام عيشنا..

كم لبثتم؟!!.. كم لبثتم في الأرض عدد سنين؟!!.. ويا له من سؤال يهزّ الوجدان!!.

نحن نعيش الأجل المسمّى بكل ما أوتينا من حظوظ المعايش، ونتقلب في نِعَم لا تحصى، ونكابد شظفاً، ونمارس اختيارات وقرارات، ونبني أحلاماً، أو قصوراً – في الهواء ربما — ثم نمضي إلى العالم الآخر.. مروراً بالبرزخ.. لنواجه كل ما كسبت يدانا..

أهل الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمئة سنيناً وازدادوا تسعا.. قالوا لبعضهم كم لبثتم؟! ليردّ أحدهم..

" لبثنا يوماً أو بعض يوم"..

كل أولئك الذين عاشوا قبلنا.. تساءلوا.. كم لبثتم..

أكثرهم أملاً أجاب أو ظنّ أنهم ما لبثوا إلا عشراً.. منهم من اجتهد وأعلن.. إن لبثتم إلا يوماً أو بعض يوم.. والبعض الآخر رأى أنهم ما لبثوا غير

ساعة.. والحصيف فيهم تنصل من مسؤولية الجواب وتهرب من مواجهة حقيقة وضعه فحوّل السؤال إلى غيره.. فليُسأل العادّون

وتأتي الإجابة الربانية..

"إن لبثتم إلا قليلا"..

هذا القليل مقارنة بخلود الآخرة.. القليل الزاخر بكل ألوان الحياة، كسباً واكتساباً، هو الذي يفتح لنا أو علينا بوابات المآل الأخير.

{ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، وإنكم إلينا لا ترجعون؟ }..

إن حكمة البعث والنشور واليوم الآخر لا تقل شأناً عن حكمة الخلق، وما البعث إلا حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيها تمامها. ولا يغفل عن ذلك إلا المحجوبون المطموسون، الذين لا يتدبرون حكمة الله الكبرى، وهي متجلية في صفحات الكون، مبثوثة في أطواء الوجود..

آه أيها الأنسان.. إنك تبدأ نطفةً ضعيفةً تخترق بويضةً ساكنة في أعماق رحمٍ مظلمٍ، ثم تتقلّب خلال مرحلة الطفولة والصغر في حالٍ من الضُعف الجسدي ومن الضَعف الفكري،.. بعد ذلك تتنابك مرحلة أخرى تتمثل فيها القوة بكل صورها الجسدية والعقلية والنفسية.. ثم تعود من بعد مرحلة القوة إلى مرحلة ضعف آخر، تعقبه مرحلة أخرى أشد منه في الضعف، وهي مرحلة الشيب

والهرم والشيخوخة التي هي أرذل العمر، وفيها يصير الإِنسان أشبه ما يكون بالطفل الصغير في الكثير من أحواله ".

على تخوم الرواية

جلست سلمى وراء طاولة مكتبها وراحت تسترجع تفاصيل حلمٍ غريبٍ أفاقت للتو منه.. راحت تكتبه بسرعةٍ قبل أن تهرب التفاصيل منها وقد استشعرت أنه يمتّ بصلةٍ ما إلى روايتها:

" ثمة يدٌ غريبةٌ تمتد إلى ساعة البنكام لتقلبها رأساً على عقب وهي في منتصف الجريان أو في بعض الوقت، تبعَ ذلك ضحكةٌ مجلجلةٌ هيستيرية.. في تلك اللحظة توقفت حركة كل شيءٍ حولي، وعمّ السكون المطبق أرجاء المكان.. توقفت الستائر عن مراقصة نسائم الهواء، وتوقف الهواء عن التسلل عبر النافذة، سكتت العصافير فجأة وكفّت عن مطاردة بعضها البعض، توقفت الشمس عن إرسال أشعتها فتمددت جحافل الظلمة لتملأ المكان بهدوئها المريع، آنذاك فقدت أذناي القدرة على التقاط صوت الأمواج المتلاحقة.. بدأت أشعر أنني أفقد أنفاسي، الواحد تلو الآخر ببطء ثقيل، ومع آخر نفَسٍ تعلّقتُ به لأخرج من جب الفراغ السحيق..

أفقت مذعورة لأجدني في سريري متعرّقةً تتصاخب نبضات قلبي فأكاد أُحصيها نبضاً نبضاً.. ترى أي كابوسٍ هو.. أم هو الموت سيقتحمني وقد تراءى في إشارات كونية لاواعية غامضة!.. أتراها الأفكار تتخذ أطيافاً وأشكالاً باذخة الغرابة لتحث المبدع على أن يستجليَ كنهها.. ".

كانت تحاول في روايتها التحدث عن تجربة الوقوف في عالم متحرك.. عن تجربة إيقاف الزمن.. وقد استجابت بكليتها لقرار العالِم سيمون في أن يخوض تجربة التجميد الحيوي.. فقد كان من المقتنعين بفكرة السبات البشري، الذي يعتمد على آلية إيقاف الوظائف الحيوية لجسم الإنسان من خلال تعريضها لبرودة تصل إلى ١٩٥.٥ درجة مئوية تحت الصفر، مدة ٣٢ عاماً.. كانت تمعن في البحث عن هذه القضية الشائكة، ولعل حلمها الغريب هذا من تداعيات الاستغراق في ملابسات الحادثة، وقد قرأت الكثير عن هذا الموضوع.. وراحت تدوّن معلوماته العلمية:

" إن السيطرة على انخفاض درجة الحرارة والتمثيل الغذائي طرق استخدمت بالفعل على نطاق واسع في الممارسة السريرية (الاكلينيكية)، مثلاً.. أثناء جراحة القلب وحماية الأنسجة من التلف عندما ينخفض تدفق الدم، فخفض درجة حرارة الجسم والتمثيل الغذائي يعني أن الخلايا بحاجة أقل للأوكسجين، مما يسمح بالبقاء على قيد الحياة في بعض الظروف.

عملية التبريد الاصطناعي هذه في البشر مماثلة لعملية السبات العفوي لدى الحيوانات والذي يتضمن انخفاض التنفس ومعدل ضربات القلب والتمثيل الغذائي.. مع فرقٍ أن الحيوانات تعرف طريقة الدخول بأمان وبشكل عفوي في السبات. والحقيقة أن العلم لا يعرف حقاً كيف تبدأ الحيوانات في عملية السبات هذه وكيف تحافظ عليها.. وكيف أنها تختلف من حيوان لآخر، فقد

تتراوح من عدة شهور من السنة، إلى بضع ساعات في اليوم على مدى بضعة أشهر. بعض الحيوانات، مثل الفئران و الطيور الطنانة، تدخل في حالة من السبات بشكل يومي إذا كانت بحاجة لتوفير الطاقة، بينما القنافذ والدببة، تحتاج إلى فترات طويلة من السبات.

إن الخفض الشديد لدرجة حرارة جسم الانسان يتطلب استخداما مكثفا للعقاقير.. كما يتطلب وجود كمية هائلة من الطاقة للتسخين مرة أخرى.. وهناك صعوبات أخرى منها أن السبات يؤثر على الدماغ عند إعادة تنظيم الاتصالات المشبكية التي هي أساس ذاكرتنا، لذلك إذا أردنا إحداث سبات بشري سيكون من المهم معرفة كيفية الاحتفاظ بالذكريات على مدى فترة طويلة من مدة السبات. ولكن لكي نفهم تماماً كيف يمكننا الدخول بأمان في السبات البشري، فإننا على الأرجح بحاجة إلى تشريح الدماغ وتحديد المسارات الجزيئية الرئيسية التي تنظم وظائف نومنا ".

اقتربت سوسن من أمها الجالسة على طاولة المكتب، أحاطتها بذراعيها وقبلت رأسها، وسالتها بشكلٍ مباشر:

- أيمكنني التحدث معك؟!

* لم لا؟.. تفضلي.

- لقد صار للحديث معك يا أمي نكهة التنقيب في مناجم الذهب، أو ربما روعة التحليق فوق قمم الجبال الشاهقات.

فوجئت سلمى بقول ابنتها على هذا النحو المباشر، نظرت إليها بدهشةٍ متساءلةً:

* صار؟!!.. هكذا إذاً.. وكيف كان قبل ذلك؟

- كنت أراه غنياً على نحوٍ من الأنحاء.. لكنه مفعمٌ بالتوجيه، كان فيه من التنبيهات والتحذيرات والتوصيات أكثر مما تطيق الروح سماعه، لأنها تهرب من الالتزام بمجمله.. لقد أضحى الآن ملوناً مثل قوس المطر الذي يشمخ عالياً بين الآفاق، مزهواً بألوانه، معانقاً حبات الماء تحت أشعة الشمس.

* حسناً.. فما الذي تودين سماعه اليوم؟

- أريد أن أعرف أين وصلت في روايتك؟ ما الجديد لديك؟ أنا يسرني أن أشاركك إياها أولاً بأول.. أن أتقلب في أطوار نموها وتشكلها.

* على ذكر الأطوار، اليوم كنت أطوف بلغات كلّ طور من أطوار عمر الإنسان.

- لغةٌ لكلّ طور؟!!

* بلى.. لكلّ طورٍ لغته المميزة، فللطفولة، لغةٌ تترقرق في ضحكاتٍ صافيةٍ عذبةٍ، في نحيبٍ مفتعلٍ بلا دموع أحياناً، في بكاء حقيقي تتساقط فيه من العيون البريئة قطرات لؤلؤ، في أصواتٍ مبهمةٍ وهمهماتٍ ترتاد مساحات اللعب الصاخب، وفي كلمات مبعثرة الحروف تختزل معناها في لغة غريبة.

للصبا في أوله، لغةٌ تمتشق يقظة الجسد وحيرة الحواس، فتصدح بأنغام الغرام المتقلب وقد ابتعثتْه لحاظٌ مختلسةٌ من غفلة الرقباء، وأشعلت ضرامه فوران تأجج انفعالات الغرائز.

للشباب في ذروته، لغة تستأثر من الأبجدية بحروف الجهد والبناء، تجتذب الأحلام إلى أرض الواقع، وتنزع إلى حمل الهمّ العام والخاص، وترفع شعاراتٍ عديدة، منها الأهلية وتمام الاستعداد لخوض غمار الممكنات، وغبار المستحيلات، ومنها المبادرات الرائدة الطامحة لترك البصمات المميزة في المحيط الاجتماعي.

وكذا للطور الأخير من العمر لغته، تنساب من بين شفاه الحكمة المتدحرجة مثل كرة الثلج، تلمّ الخبرة والتجارب من أولى سني العمر وهي في طريقها إلى نهاية المطاف، فإن دوّنتْ وقيّدتْ توسّع طيف الفائدة منها إلى أقصى مداه.

ومع الأطوار المتبدلة للغتنا المحكية، لك أن تتخيلي شكل القلب المتبدل معها.. أوليس المرء بأصغريه قلبه ولسانه؟!

فلتقارني بين قلبين، قلب طفلٍ صغيرٍ، ترينه نضراً غضاً، مرناً إلى درجة الليونة المرحة البريئة، التي لا تحتفظ بأحقاد ولا ضغائن.. وقلبٍ إنسان هرم، تجدينه متغضناً نافر العروق، هشاً رقيق الجلد إلى درجة الهشّاشة المطلقة التي تصدعها كلمة أو لمحة.

- كم تختلف لغاتنا المحكية والمرئية، حسب أعمارنا.

* تقصدين لغة الجسد أيضاً، أليس كذلك؟

- تماماً أمي.. فلكلّ حركة، أو شكلٍ، أو لون، إيحاءٌ وقصد.

* وهنا تكمن غزارة المعلومات التي تحيط بنا، وتتطلب منا البحث عنها

- فما آخر معلومة وقعت عليها في تطوافك البهيج بين الأفكار؟

* الحق معك يا سوسن، لقد التقيت بالكثير من المباهج الفكرية أثناء تجوالي ونوساني بين عوالم المادة والروح.

- هاتي بعضها أمي.. كلي آذان مصغية..

* مثلاً.. أتعلمين أن إطعام يرقات النحل التي يراد لها أن تغدو ملكاتٍ، طعاماً خاصاً يدعى بالهلام الملكي، يجعل حياتها تقاس بالسنوات، بينما يقاس مدى حياة بقية مجموعة النحل بالأشهر.. دعينا نفترض وفق هذه النظرية الموجودة في عالم الحشرات، فرضية مشابهة نطبقها في عوالمنا نحن البشر، ترى ما الذي يحدث لو جعلنا بعض البشر يتناولون طعاماً خاصاً يمنحهم مدى حياةٍ أطول من غيرهم من أقرانهم بعشرات أو بمئات المرات؟

- سيعظم حزنهم عند فراق كل من يحبونهم، سيطول أمد عذابهم ومعاناتهم، سيزهدون في كل ما يبنون من أمجاد سيتركونها ذات يوم.

* أرأيت؟! إن الحياة الأطول لا تعتبر دائماً حصيلة سعيدةً، فالسنوات المضافة هي سنوات لحياة معتلة الصحة، يُعتمد فيها على الآخرين وخدمتهم، وهذا ما لا يتمناه أي كائنٍ عاقل.

- أظن أن طول العمر مع الشيخوخة المعتلة أمر غير مرغوب به تماماً، ولعل الحل الوسط هو تعويق تقدمها.. أظنّ أن الموت يمثل هنا خلاصاً للإنسان من هذا الضجر السرمدي.

* ولهذا ففي الخرافات والأساطير التي تدور حول موضوع قهر الموت أو الخلود، يتكرر وجود مادة يبحث عنها أبطال الأساطير.. مثل ماء الحياة، أو عشبة الخلود، أو نبتة الشباب.. والتي تحمل عادة من الخواص ما يجدد الشباب.. أذكر أنني قرأت أن في القرن الأول قبل الميلاد نصح كيميائي صيني الامبراطور هان بتحويل الزئبق إلى ذهب لصنع أدوات المائدة منه، الأمر الذي يحقق الخلود بتناول الطعام في هذه الآنية.. أو بناء بيوتات للاستحمام مزودة بأحواض من الذهب المصمت، ويدفع المستحم أجراً سخياً للجلوس فيها، وربما يعود أقدم سجل مكتوب حول هذا الموضوع إلى عام ١٦٠٠ ق،م في ورقة بردي مصرية تتحدث عن تحضير مرهم يحول العجوز إلى شاب عشريني.. كذلك ملحمة جلجامش في حوالي ٢٠٠٠ ق.م والتي تصف هاجس جلجامش بالخلود.

- إنها القلق البشري المستمر منذ الأزل حتى الساعة،

* ثمة مؤلفات ومخطوطات يُدعى فيها إلى فضائل حياة التقشف كوسيلة لتحقيق تعمير أقصى، وعمر أطول.. وقد اكتشف أن أغلب المعمرين يقطنون في بيئاتٍ صحية يتمتعون

فيها بالهواء النقي وأشعة الشمس ويتنفسون الأكسجين الطازج الذي تزفره الغابات الخضراء

- التقشف عادةً، لا يؤدي إلى عللٍ وأمراضٍ مزمنة، لأنه يأخذ الحد الأدنى من عناصر الحياة وحاجاتها.

* كذلك، فإن العلم قد رفد هذه التطلعات الحالمة والآمال المتوقعة، بحلولٍ تجريبية نسبها إلى العلم ربما.

- حقاً؟ وهل من وسيلة إلى ذلك فعلاً؟

* بلى.. مثلاً.. باستبدال الأعضاء المعتلة بأخرى جديدة، وتحديث عصارات الجسم القديمة، بنقل دمٍ فتيٍ إلى الأوردة الهرمة

- وهل يمكن ذلك؟

* لقد تمت تجربته على الحيوان.. ففي تجربة كوكسين، نقل "١٤-١٦" أونساً من دم كلب فتيٍ إلى أوردة كلب عجوزٍ وتحقق له الشفاء التام، وبدأ يمرح ويطفر مع أنه كان قد أصابه العمى مع التقدم بالعمر وبالكاد كان يتحرك.. إن بعض الحيوانات تفعل ما يشبه ذلك غريزياً.. إن الأفاعي والعظاءات والسرطانات والخنافس تبدل جلودها أو أصدافها دورياً، وكأنها عملية تجديد الشباب.. ولقد تناول العلم طريقة الحياة في خلال بحثه الدائم عن أسرار الشباب الدائم.. وأورد مقولة ..

" عش متعجلاً، تمتْ صغيراً "..

- بأي معنى هي كذلك؟!

* إن استهلاك القدرة الفيزيولوجية بسرعة تجعل الشيخوخة تأتي مبكرةً.. وبالمقابل فإن حياة مسترخية تؤدي إلى هرمٍ بطيءٍ وحياةٍ أطول.. ثمة مقولةٌ تناسب هذا المعنى تقول..

" لإطالة أيامك لا تستعجل في حياتك بل عش بهدوء وبهذه الطريقة ستعيش ملء كلّ لحظة.. أنت عندما تبطئ من جريانك، ستخرج من صراعك مع الوقت، وستتحكم به.".

- وكأني بها الترجمة العملية لكون الإنسان رهين كسبه..

* بالضبط.. فإذا كان تراكم الفضلات والسموم يعرقل الوظيفة السوية للخلية ويقتلها ببطء، فيلزمنا إذاً أن نعيش الحياة الصحية لنحافظ على جسدٍ خالٍ من الاعتلال والأمراض، لنعيش المدى الأقصى للحياة ونحن بكامل قدراتنا العقلية والفيزيائية.

- من السهل أن تعرف أسس الحياة الصحية، فالعلم قد كشف اللثام عن كل قوانينها وحددها بقواعد واضحة، المشكلة في التطبيق.. لقد أخذتنا العادات الخاطئة بعيداً في كل مناحي الحياة، من طعامنا وشرابنا ونومنا.

* العلم وحده لا يكفي صاحبه، ولا يشفع له، ولا يزدان به، إلا إذا عاشه وعمل به... ذلك أن السؤال الخطير، بل الأخطر على الإطلاق، والذي يعتبر تتمة للعلم أنى حلّ.. السؤال الأهم

الذي يضعنا على المحك في كل آن وأوان، السؤال الأبقى لمعرفة الهوية وتحديدها، هو..

" ماذا عملتَ فيما علمت؟؟!! "..

والذي أعتبره السؤال الأخطر على الإطلاق.. السؤال الذي يضعنا في مواجهة ذواتنا.. منفردين.. كل منا على حدة.. ذلك أن الإنسان يواجه ذاته منفرداً في حمل عبء اختياراته، وهو يولد بمفرده ولمرة واحدة، ويموت بمفرده ولمرة واحدة.

- وما بينهما يمارس التشاركية مع الآخرين، والحياة الاجتماعية..

* تماماً .. إن قولي.. لا يولد إلا مرة واحدة ولا يموت إلا مرة واحدة، صحيح على الصعيد البيولوجي.. أما على الصعيد النفسي الاجتماعي والفلسفي، فنحن نولد غير مرة، كما يمكن أن نموت غير مرة.. نولد في كل مرةٍ نكتشف فيها ذواتنا، أو نبدأ فيها من جديد حياةً جديدةً، أو نعيش مغامرةٍ عاطفية مختلفة، أو......حالات أخرى أكثر متعةً وحميميةً وبهجة.. وكما نموت في أكثر من حينٍ.. حين يوجعنا الفقد كثيراً، أو حين تقحمنا الويلات والبلاءات بشراسةٍ حقيقيةٍ، أو حين تكسرنا وتهزأ بنا الكلمة القاسية أو الموقف القاتل، وما بين الولادات العديدة والميتات العديدة نختبر جدوى الحياة.

- ما أعرفه أن السؤال عن الجدوى يحول الحياة إلى أرقام وحقائق.

* وهل يُشترط بالجدوى أن تكون مادية، أو اقتصادية؟ أنا لن أسأل من خلالها كم سأجني من ثروات، وكم سأملك من أملاك، وكم سأنفق من أموال، بهذا ستتحول حقاً إلى مجرد أرقام.

- وإذا كنت سأسأل عن المعنى، والقيمة، والهدف، سأكون بذلك قد ابتعدت عن العبثية، واللاجدوى.

* تماماً.. وهذا الذي ذكرت هو ديدن الفلاسفة والباحثين عن الحقيقة، وقد تلاطمت بهم أمواج الأهواء والآراء، وغامت في عيونهم بروق النظريات والفرضيات، كلّ منهم قد صادف جزءاً من كلّ الحقيقة، ولا يزال البحث مستمراً.. ولن ينتهي أبداً ما دامت البشرية تنجب وتتوالد.

سجال العيش

مع احتساء الشاي في وقتٍ ما، تروق للنفس سجالاتُ ثرثرة عفويةٍ تتدفق تلقائياً مع الرشفات الساخنة، وعلى الأخص بين نفوسٍ يجمعها الحب والتناغم والشفافية.. قال سمار حالماً، وقد وجه الحديث لأخته سوسن:

- أتعرفين كيف يمرّ العام بحياة شجرة الجوز، وكيف يرسم بتحولات فصوله الأربعة المتعاقبة أطواراً عدة متنوعة؟

* لم أنتبه لذلك من قبل.

- فعل الزمن يكون مختلفاً باختلاف الكائنات التي يمر عليها.. فشجرة الجوز مثلاً.. تتساقط أوراقها في فصل الخريف مصفرّةً ذاوية تتناقلها هبّات الريح هشيماً تذروه هنا وهناك.. تتعرى أغصانها تماماً.. تماماً، كأنها لم تغنَ بالأمس.. فما ترين أمامك إلا شجرة يابسة لا حياة فيها، تستقبل الشتاء بلون لحائها الخشبي اليابس في جذعها وعروقها الضعيفة المتفرعة، إلى أن يطلّ سلطان الفصول بموكبه البهيّ فينثر الربيع أُعطيات الحياة في مفاصلها، لتتفتق برعميات الأوراق عند كلّ عقدة، وتتثاءب وريقاتٌ بالغة النعومة في أماكنها وتبدأ بالنهوض من سباتٍ شتوي حافل بالاكتناز الصامت.. ثم تكبر وتنمو وتزداد نضارةً واتساعاً.. حتى تختفي الأغصان تحت ظلال أوراق كثيفةٍ كبيرة الحجم تصل بمساحتها إلى أكبر من مساحة الكف، وتتحوّل الشجرة الباسقة إلى كتلة من الجمال الأخضر البراق،

تزداد خضرة وجمالاً وتثمر، تثمر جوزاً أخضر شهيّ الطعم، يتلألأ بين الأغصان الكثيفة كجواهر فيروزية داكنة.

* فعلاً.. هي تحولاتٌ سنوية غنية.

- أما شجرة الصنوبر.. أو شجرة السرو.

* هما من الأشجار دائمة الخضرة.

- تماماً.. فهي تبهج العين على مدار العام، أيان قصدناها وجدنا متعة النظر وطاقة التفاؤل والإيجابية.. لا تنزع أبداً مع مرور الفصول إلى تبديل هيئتها الأصلية، ولا تنحاز إلى تعديل مظهرها الثابت، وتظلّ شامخة بلونها البهيج حتى لو غطتها الثلوج فترة من الوقت، أو استل الخريف ألوان جاراتٍ لها في نفس المكان.

* وما الذي تريد قوله من هذه المقارنة؟

- أريد أن أقول أن النوع البشري يتراوح بين هذا وذاك، نحن نشبه شجرة الجوز أحياناً، فنعرى وتجف عروقنا إلى أن يأتي ربيعٌ ما لنكسى بأبهى حلة، ولكننا نستطيع أن نظل دائمي الخضرة والنضارة كالصنوبر، إذا كنا نتقن فن البقاء ملء العين والقلب، ذلك الفن الأصعب على الإطلاق، الذي يتعلق بعدة عوامل متشابكة بين دواخلنا ودواخل الآخرين.

* ليس سهلاً أن تستأثر بحب الآخر لفترة طويلة إن كان من النوع الملول، المتقلب، كثير الأهواء، سيجعلك ذلك تقف

بالمرصاد لكل تقلباته وأهوائه، لتلتف حولها وتغير مجراها وتجعلها تصب في وعائك أنت..

- لكن حبك إياه يدفعك لأن تفعلي، والحب قيد، والنفس عادة تقاوم القيود، وتميل إلى التفلت، والحرية، والانطلاق.. لذاً فهي معادلة صعبة.

* نعم إنها الفن الأصعب على الإطلاق.. لكن الحبّ يجعله سهلاً.. والحبّ يبلّل الأيام الصادية بندى العذوبة، ويزرع ورود التقبل والتكيف في طريق الواجبات المفروضة الثقيلة.

- أحياناً.. يكاد أن يكون كل مفروضٍ مرفوض..

* لكن الحبّ يمسح الصدأ الذي يعلو روتين الحياة ورتابتها، ويبث فينا دفقاتٍ من الحماس والإقبال غير المشروط، وهو الذي يمنحنا متعة العيش في الحاضر.

- ويقترب شيئاً مع متعة السفر إلى الماضي أو المستقبل.

* أفهم أنك يمكن أن تعود بذاكرتك إلى الماضي، ولكن كيف تسافر إلى يومٍ لم يأت بعد؟

- أسافر إلى المستقبل من خلال افتراض نتائج وعواقب لأمورٍ قد تحدث، فأتدرب على مواجهتها قبل حدوثها.

* مثلاً؟!.

- مثال ذلك دورة إعداد الأزواج، التي تدرّب المقبلين على الزواج وتساعدهم على رؤية عواقب تصرفاتهم مع بعضهم، وتترك لديهم إلماماً بالطرق الأمثل لمعالجة مشاكل الحياة الزوجية في المستقبل.

* لعل في ذلك متعة ملموسة فعلاً كما ذكرت، ولكن ما متعة السفر للماضي وقد مضى بما فيه من فرح أو ترح؟

- قد يحمل السفر إلى الماضي قدرة علاجية ظاهرة، تحدّ من تأثير تداعيات التجارب النفسية المؤلمة، شريطة أن يتقن المعالج مهارة ابتعاثها وتثبيطها في الوقت المناسب.. أتعلمين أن العلماء قاموا باختراع جهاز يصنع فجوة عبر الزمن لمحو أخطاء الماضي!. تخيلي لو امتلكت يوماً القدرة على صنع فجوة في الزمن لكي تخفي فيها أي حدث لا يعجبك كأن لم يكن!.. هذا ما فعله العلماء في جامعة كورنيل بالفعل من خلال ابتكار جهاز يقوم بإخفاء " البيانات " عبر صناعة فجوة زمنية.

* لكن كيف فعلوا ذلك؟

- من خلال تعديل الطريقة التي تسير بها موجات الضوء داخل قنوات الاتصال.

* لم أفهم.. ماذا تعني؟!

- لتسهيل الفكرة، لنفترض أن الضوء هو سيارات متتابعة على طريق سريع، تخيلي معي لو قامت السيارات في المقدمة

بزيادة سرعتها وقامت السيارات في المؤخرة بإبطاء سرعتها ستكون النتيجة هي فجوة من السيارات في المنتصف.. تمام؟!.

* وبعد؟!.

- تخيلي نفس المثال الآن على فوتونات ضوئية تنقل المعلومات عبر الزمن، ستكون نتيجة التحكم في سرعتها واتجاهها هو صناعة فجوة من " الزمن " في المنتصف لإخفاء بيانات وأحداث كأن لم تكن.

* مثالك واضح.

- وقد تم تطبيقها بالفعل على أجهزة إرسال بيانات تجارية، وكانت النتيجة هي إخفاء بيانات تم إرسالها بالفعل، لكن أجهزة الاستقبال لم تر أي مؤشرات تدل على أنه تم إرسال أي شيء في المنتصف كأن لم يتم إرسالها في الأصل.

* كل هذا العناء من أجل محو أخطاء الماضي.. أنا.. والحمد لله.. لا أذكر أني اقترفت ما أندم عليه.

- ثمة بقعٌ داكنةٌ تقبع بخبثٍ في صفحات الماضي، أتمنى لو امتلكت مزيلاً سحرياً أرشّ منه بضع قطرات عليها لتزول.. أتعلمين.. إن ذلك ممكنٌ في العالم الرقمي، حيث تتاح لك العودة بالزمن إلى الوراء.. للتحكم بمجريات أحداثك على حاسوبك.. فلطالما عدّلت على البرامج الحاسوبية، فحذفت شيئاً وأضفت آخر.. خيار" undo " في جميع برامج تحرير النصوص، يوفر لك فرصة التراجع الحقيقي عن الخطأ، كذلك

خيار" تراجع " في جميع الألعاب الالكترونية، يعيدك إلى مرحلة سابقة، لتحاولي من جديدٍ قبل أن تخسري.. لتحاولي ألا تخسري.

* ترى أما من خيار واقعي في العالم المادي الذي نعيش فيه، يقدّم لنا ممحاة كبيرة، أو أكثر من ممحاة، تتناسب مع أخطائنا، زلاتنا، وآثامنا.. أما من زر نكبسه فنرجع إلى ما قبل اقتراف الخطأ، إلى ما كنا عليه أولاً، أو قبل.

- كلمة قبل هذه ذكرتني باقتباس " أما قبل " الذي ابتدعه الرافعي في مؤلفه الذي يحمل اسم " أوراق الورد" ولعلها تصير جملة " أما قبل " نقطة العودة إلى الوراء.. أتراها ممكنة في عالم البشر، كما هي في العالم الافتراضي الرقمي؟!.

في هذه النقطة بالذات تدخلت الأم وهي التي آثرت استماعاً جيداً لحديثهما، وأحاطت بمداخله، فقررت أن تصطاد لهما من صيد الفوائد ما تقدر عليه.. قالت مؤكدةً لحقائق جلية:

- بلى.. بلى.. هناك الكثير.

- حقاً أمي؟!.

- بلى.. الاعتذار أحدها، مشفوعاً بندم حقيقيٍ وجهدٍ ملموسٍ لإعادة الحق، مادياً كان أم معنوياً، لأهلهً.

- إذاً.. ما شأن الكلمة القاتلة كرصاصة!!.. كيف الاعتذار والتراجع عنها!!.. كيف التراجع عن طلقٍ ناريٍ يستقرّ في القلب.. أما قيل..

" حتى لو اعتذرت الريح، يظلّ الغضن مكسوراً ".

- أحياناً تستحيل الأمور، ولكنه استثناء.

- حسنٌ.. وما غير ذلك؟!

- التوبة خيار آخر.. والتائب من الذنب كمن لا ذنب له.. الخيارات كثيرة متنوعة.. كالصفح الجميل والتسامح، وإعلان فتح صفحةٍ جديدةٍ، ومصافحة صافية تلتقي فيها الأكف الودودة، ممهورة بالنوايا الحسنة.. الاستغفار العميق الذي يغسل ما ران على القلوب، ويجدد ألق إيمانها.. الجَبُّ عما قبل، والعفو عما سلف.. الإحسان الذي يمحو الإساءة، كأنها لم تكن.. الإمهال للغارقين في بحور آثامهم..

- أصبت أمي، هي فعلاً طرائق لتعديل المسارات والسلوكيات، ولعلنا نراوح في مجالاتها دائماً، ابتغاءً للرضا الداخلي والسلام.

تداعيات بوح

أغلقت سلمى مسودة روايتها، وعمدت إلى إخفائها عن الأنظار حتى تستكمل إعدادها وتأليفها.. قامت لبعض شأنها فأخذتها الشؤون بعيداً وأغرقتها المهام المنزلية في دوامة الترتيب بين فصلي الشتاء والصيف، عاندها القلم قليلاً وكأنه ينتقم من إهماله، أو أنه استطاب الدعة والكسل، فتمنّع وأبى.. لكنها ذات وحدةٍ قضتها في منزلها متفرغةً لا عمل لديها، أسرعت إلى الأوراق الأثيرة تبثها حباً.. كتبت:

" أحياناً يصمت قلمي طويلاً.. يغادرني مداده إلى جوفه، فتتعلق عيناي بحروفٍ قد تنسل من ريشته لتشيَ بي فوق الأوراق الصماء.. أوراقٍ كانت بكماء للتو، ثم صرخت بكل ما قذفه اليراع إليها كحممٍ متدفقةٍ من بركانٍ ثائر، لتتلقفه العيون المتربصة الراصدة..

يا لكلماتٍ تأتلق شُهباً في غسق مشاعري، تومض.. لتبوح.. فتختفي..

تلك المشاعر التي تتلاطم وتزدحم.. أحاول فرزها وأرشفتها.. أحاول ترتيبها في جدول منطقي..

مشاعر في جدول منطقي!!! ذاك هراء حقيقي.. فالحبّ مثلاً.. أجلّ المشاعر وأقدسها.. الحبّ يأتي حين يأتي مبجلاً.. كالربيع فائق الجمال، فإن قُدِرَ

له أن يغادرنا وهو غادرٌ، فإنه يترك وراءه ندوب الألم وحطام الذكريات، ليُغرق أيامنا في خريفٍ حزين.. أو قد يأتي انبهاراً.. مشفوعاً بحبٍّ من نوعٍ مختلف، ثم يصبح مع الاقتراب شيئاً آخر، كالاقتراب من الأسلاك الشائكة يغمره الحذر، يصبح طوطم حبٍّ.. رمزاً.. يعلّق في مدخل قبيلة، تختلط ألوانه الخرافية وتتمازج لتشي بغرابتها وفرديتها ".

توقفت سلمى عن الكتابة للحظاتٍ حتى تردّ على اتصالٍ هاتفيٍ قطع سلسلة أفكارها وشتت تركيزها، لكنها عادت مسرعةً لتحضّ نفسها على الإبحار الجميل.. خاطبت ذاتها قائلةً:

" أيقظي حواسك لتلتقط أدقّ الإشارات الكونية في أوسع بانوراما..

ارفعي عتبة اليقظة إلى أقصى مداها.. أصغي.. وأرهفي السمع، سيتهافت عليك الهمس الخالد في أصوات الطبيعة الساكنة، وستتناثر أمام عينيك الأطياف والصور كياسميناتٍ هزّها نسيم الأصيل.

كوني على حذرٍ يا سيدة القلم النابض.. فما أسرع هروب وتسلل الأفكار من قبضة العقل إن لم تدوّن فور انبعاثها، كالكف تنغمس في ماء المحيط، فلا تعود بشيءٍ منه.. ركّزي على الأوان المتضادة، فما كلّ آنٍ آنُ بوح، ولا كلّ آنٍ آنُ تحليقٍ للقول.. ثمة أوان للعزلة والفراغ.. والصمت.

وللصمت سحره، إذ أن ممارسة تجربة صمت داخلي حقيقي، مهما كانت صغيرة، تسبب تغيرات فيزيولوجية جسدية، كخفض معدل ضربات القلب ومعدل استهلاك الأكسجين، وتوتر العضلات، وعلى الصعيد النفسي فيتحقق وضوح ذهني عال، وارتياحٌ وجداني كبير.. ولكن.. كيف ومتى يمنحك هذا العالم المجنون الصاخب الصمت؟!.. ربما في منتصف الليل، أو عند السَحَر، أو في أحضان الطبيعة مثلاً.. أنا مع من نصح أن نبحث عنه ولا نتركه للصدفة أو الحظ أبداً.. أن نوجده إن لم نجده.. إنه نوعٌ من الوعي وجزءٌ متممٌ للنظام المناعي يمكننا التحكم به، عن طريق السكون التام مع عدم التفكير.. أنا أوافقه الرأي إذ قال..

" كن وحدك مراراً.. وأنصت إلى الصوت الخافت الصغير الساكن في داخلك.. فلحكماء الهند القدماء مقولةٌ ثمينة هي " الوحدة ثمن العظمة " وهي تلامس جانباً من هذه الحقيقة ".

حبة رمل البنكام.. بحجم قرنٍ كامل (مئة عام)

بنكام كونية

غابت سلمى في تخيّلاتها أكثر.. رأت بنكاماً هائلةً، ضخمةً، بحجمها وبحبات رملها.. تتسع لحجم وعمر الكرة الأرضية، إذاً.. سيكون لها في روايتها بطلٌ من نوعٍ خاصٍ، هو عالِمٌ متبحرٌ يتتبع بذكاءٍ تلك الحبات الأرضية، ويعاضده في ذلك مخترعٌ الكترونيٌ أكّد على إمكانية اختراع وصنع جهازٍ يرصد أصوات من مروا بالمكان قبل آلاف السنين.. سيسجلُ قعقعة حوافر خيل الحروب الطاحنة، وصرير سيوف الفرسان والجيوش المتحاربة.. سينبض مع الغزل العذري يترقرق حبّاً وطهرّا حين يتناجى به عاشقان اثنان في غفلةٍ من الرقباء.. سيكتب همهمة المؤامرات الخبيثة، وتدابير المكر والشر التي تحاك في الخفاء ضد أشخاصٍ أفراد، أو ضد جماعاتٍ وقبائل ودول.. سيسجل صرخات ألم المعذبين ظلماً وقهراً، تعذيباً خفياً في غياهب السراديب أو علنياً تحت قبة السماء، وصرخات شوق العاشقين وقد اغتالتهم الغربة وأشقاهم الحنين، وصرخات مواليد اقتحموا الحياة برؤوسهم الغضة واستقبلوها بالبكاء.. سيلتقط ضجيج مهرجانات وكرنفالات واحتفالات المناسبات المختلفة من تتويج ممالك وسباقات رياضية أو فنية.. سيسجل أصوات كوارث لحقت بالناس إلى عقر دورهم وفجعتهم بأحب ما يملكون..

تمادت في تخيلاتها أكثر.. وتمنت أن يكون هذا المخترع قادراً على تسجيل صوت البرعم وهو يتفتق من غضنه ليعلن بدء حياة.. وعلى تسجيل صوت قطرة الغيث وهي ترتطم بورقة

شجر، أو تكتكة ساعات القاعات الكبيرة في قصور الملوك والأمراء وهي مصنوعة من أغلى المعادن وأنفسها، أو هسيس ذرات ندف الثلج وهي تسقط فوق بعضها لتحيل وجه الأرض ناصع البياض، أتراه سيسجل مناغاة رضيع يحدق في وجه أمه، أو صوت تحطّم أنية الزهر وقد عبث بها طفلٌ مشاغب..

" أيها المخترع العظيم سجل الحلو قبل المر في عالمنا المتناقض لنعرف أنه يحوي الحلو قبل المر.. أنا أجعلها أمانة في عنقك أن ترصد كل إيجابيات الحياة دون استثناء، ولا تخبرني بالمآسي الكثيرة بحجة الواقعية.. أريد أن أُقبل على الحياة دون تلوثٍ مسبقٍ بأدرانها فهي ستدركني لاحقاً ".

عودة وائل

أخبرت كارلا صديقتها سلمى أن الزميل الجامعي القديم وائل قادمٌ من بلاد المهجر ويريد رؤيتها، استنصحتها وطلبت منها المشورة الصادقة..

يا لقلوب العذارى وهي تتفتح كلّ صباحٍ مع أول شعاع شمس.. لتستمد الأمل من بزوغها اليومي.. أشارت سلمى بإعطاء فرصة حذرة له لعله يكون جاداً في طلبه، وكأنها أرادت أن تلتمس لصديقتها دفئاً من ذلك العرض الغامض، القادم من أصقاع الغربة.

في اللقاء الأول كان وائل متعجلاً، اختصر المسافات إلى مبتغاه ولم يلجأ إلى المناورة أبداً.. لعله قد أدرك متأخراً أنه تأخر كثيراً، وأن الوقت لم يعد في صالحه، وأنه قد أطال البعاد.. قال بشكلٍ مباشرٍ لا مواربة فيه ولا تردد:

- حبي لك لم يهزمه الزمان.

- لقد غبتَ سنين طويلة.

- ولكني كنت أطلّ يومياً على صفحتك على الفيسبوك.

- أجل.. لقد كان مرورك الراقي بتعليقٍ أو مشاركةٍ أو إعجاب يدخل السرور على قلبي، يا للسخرية.. يا للعالم الافتراضي.. كم يزخر بحيواتٍ مفترضة، تجاوزت حدود الزمان والمكان،

دوّن الناس فيها تفاصيل حياتهم بالكلمة والصورة.. عاشوا غير مرئيين بالنسبة لبعضهم، اختلقوا الأسماء المستعارة حيناً لتمويه أشخاصهم وحقائقها، وجاهروا بها حيناً آخر في صراحةٍ سافرةٍ.. يتواصلون عبر شاشة هي قناة الوصل، يؤدون فرائض الواجبات الاجتماعية، ويتقاسمون حلو ومرّ الأحداث.. بكبسة زر.. يخلدون ذكرياتهم في مواقع افتراضية.. ويرصدون واقعهم في مواجهة افتراضية.. يتهادون باقات الزهور المنمقة، وقوالب الكاتو المزخرفة، وعبارات الود والمحبة والاحترام على ملصقاتٍ شاعرية في منتهى الروعة والجمال، ولكن أيّ حياة تلك؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟!!!!!!!!!

- هي تلك التي تفرضها الظروف القاهرة علينا.

- أنا أعرف أن العالم اليوم في سباقٍ محموم مع الزمن...اخترع الإنسالات وتفنن بأنواعها لتعينه على اختصار وقت واجباته المفروضة، أوكلَ إليها القيام بالعديد من مهامه، فتقتحم الخطر بدلاً عنه، وتقوم بالعمل بشكلٍ حيادي خالٍ من انفعالات مرتبطة بعواطف مشاغبة تهيمن على سلوكنا فتقوده أو تعدّل فيه أو تعوقه، طوّر عمل النقل الكمومي اختصاراً للمسافات، ابتدع شابكة النت ووسائل التواصل الاجتماعي عليها ليقلص الهوة بين لقاءات الناس التي كانت تستغرق أعمارهم دون أن تحدث..

يا لهذا الفضاء الافتراضي السيبري..

لقد أودعناه صورنا وأفكارنا وأحلامنا.. رفعناها إليه وتركناها معلقة بعد أن ضاقت بنا وبها الأرض، مع وجود احتمالية فقدها ذات ضياعٍ للطاقة الكهربائية.

لم يأبه وائل بسخريتها المرة من نافذة هذا العالم الافتراضي التي كان يطل منها عليها.. أجاب متحبباً:

- أنا لم أنسك يوماً.

- ألم تتزوج هناك في بلاد الغربة؟

- أنا لم أفتح قلبي لامرأة قط سواك.

داهمها حياء العذارى فارتبكت من رغبتها في معرفة المزيد.. غاصت إلى قعر أفكار عميقةٍ.. ترى هل عاشر امرأة هناك؟! فما أكثر بائعات الهوى.. وكأنه قرأ أفكارها التي ترتسم ببراءة على صفحة وجهها الحالم.. أجاب مؤكداً:

- صدقيني.. حبي لك لم تختزله الشهوة في لذة محرمة.. لقد أحببتك حقاً وما مسست أنثى قط.

شعرتْ بالفخر.. وبالنصر.. وبالطهر.. لكنها سرعان ما شعرت بالقهر أيضاً.. وبالكسر.. ضجّ النداء الصارخ في أعماقها..

" لماذا لم تأت قبل الآن؟؟!! "..

لم تترك السؤال يعربد داخلها.. قررت أن تواجهه.. سألته بشكلٍ مباشر:

- لماذا لم تأت قبل الآن؟؟!!.

وباختصارٍ لا يشفي غليلاً ولا يسكن لاعجاً ولا يهدّئ سورة.. أجاب باقتضابٍ شديد:

- هذا هو أواني يا كارلا.

كانت هذه الإجابة المقتضبة، توقيعاً أخيراً أقفل ملفات حديث اليوم، وقطع الطريق على متابعة الكلام.. صمت وائل وآثر الانسحاب إلى كهفه الغامض، وسكتت كارلا فجأة وكأنها تلقّت ضربةً على رأسها.. صار الصمت سيد الموقف حتى آثرا الافتراق دون الخوض في المزيد من الألم، يحمل كلّ منهما صمته الخاص وضجيجه الداخلي.

" هذا هو الأوان يا كارلا "..

جوابٌ سمعته من قبل من سلمى.. عادت به إلى منزلها، موجوعة القلب والوجدان، شاردة الروح والذهن والحاضر.. تساءلت أعماقها بحرقة..

" كل هذا الحب غيّبه البعد عني.. وجعلني القدر محتجزة لأجله، رهينة له.. هل هذا ما تفعله الأقدار بنا؟!.. لقد ولى الشباب وذوت نضارته.. الشعر الأبيض يعصف برأسينا.. وتجاعيد العمر تحكي قصة انتظار طويلة.. آهٍ منك يا وائل... إن خطأك من الأخطاء الجسيمة التي نرتكبها في حق أنفسنا ".

التأجيلات.. نحن نؤجل الأشياء المهمة في حياتنا، الأشياء المحببة والمرغوبة، نؤجل الاعتراف بالحب والمبادرة إلى اللقاء، نؤجل الشكر على المعروف والاعتذار عن الخطأ، نؤجل متعة العيش واكتساب الفرح وكأننا نضمن العيش طويلاً.. التأجيل مطية العاجزين عن اللحاق بأحلامهم.. التأجيل أبشع آفات الزمن.. كم نفقد من الأفكار عند تأجيل التعبير عنها، كم نفقد من المشاعر عند تأجيل البوح بها، كم نفقد من الأشياء عند تأجيل الرغبة بامتلاكها.. أجّلْ وستخسر.. قاعدة ذهبية تحكم ظروفنا، التأجيل كفٌّ عن العمل في الحاضر ووعودٌ عرقوبيةٌ قادمة قد لا تأتي.

لم تكن كارلا تؤنب وائل على تأجيله، فهي ملكة التأجيل والكفّ.. لكنها عاتبت بعتابه ذاتها المغيبة عن الإقدام إلى عوالم الفرح.. اتصلت هاتفياً به لتقول له:

- لقد أجّلتَ يا وائل طويلاً.. حتى فقدت الكثير.. بل.. حتى فقدناه معاً.

- هآنذا... قد جئت أعوّض ما فات.

- تعوّض ماذا؟؟ أنا الآن في سنٍ لا تسمح لي بالإنجاب.. هذه أنا وقد أمضيت سواد عمري بالحرمان من حق الأمومة ليتحول حرماني إلى طوفان عطاءٍ يجتاح كلّ من أعرفه، أو أقابله، من الشبان والشبات.. أضمّ إلى قلبي كلّ هؤلاء.. أمنحهم جوازات سفرٍ ممهورةٍ بختم محبةٍ أمومية.. أقول لهذا " أنت ابني ".. ولذاك " أنا في مقام والدتك ".. وأقول لتلك " أنت غالية في منزلة الابنة "، ولأخرى " أحبك يا بنتي ".. وكأنني

أُعوّض النقص الذي اعتراني، أغترف لهم من ينبوع أمومتي الظامئة الفياضة المتدفقة.. أغمرهم بأشعة دفء عاطفتي المتوهجة.. أطويهم تحت جناحي الحبّ والاهتمام.. وأضمّهم بين ذراعي بحنينٍ لا ينفد.. أما الأطفال الصغار.. والرضع منهم بخاصةٍ، فلِّي معهم حكاية أخرى، متى أبصرتهم، يصبحون الكائن الأكثر إثارة لعاصفة دموعي، أتقرّاه بأناملي، وأحمله بين ذراعيّ.. آه يا وائل.. لقد أصبحت مثل البذور العاطلة.. أما علمت أنه كلما طالت فترة تخزين البذور والاحتفاظ بها كان عدد ما ينتش منها أقل.. فما بالك بي وقد تجاوزت سن اليأس.

- ليتك تبرحين هذه الدوامة.. فقلبي يُعتصر ألماً.. عزيزتي.. قد نتمنى لو يعود الزمان إلى الوراء.. لنعمل ما لم نعمل، ونتجنب ما لم نتجنب، ولكنها صيرورة المضي قدماً.. الثابتة.. من المنبع إلى المصبّ.. حتميةٌ لا فكاك منها.

صمتت كارلا برهةً، وهي تتعرّض لأعنف إعصار فكري عصف بها.. تلاحقت أفكارها بسرعةٍ عجيبةٍ، لتصل إلَى نهايةً تراجيديةٍ محزنة..

" الآن يتزوجني، ثم لا أنجب له الولد المرغوب، يبحث عن امرأةٍ أخرى، شابةٍ ويتزوجها من أجل ذلك، سيكون لي نصف رجل، أو ربما أقل، سيكون زواجي مبتوراً وسأعاني من الوحدة القاتلة في غيابه، ومن الانتظار العقيم.. لا.. لا أريد ".

وعلا صوت أفكارها الهاربة من ضجيج الإعصار:

- لا.. لا أريد.

- ما بك كارلا؟ ما الذي تغير؟ ظننتك سعيدةً برجوعي إليك.

- كنت مبهورةً.. ومصدومةً.

- بل كنت سعيدةً. قرأت ذلك في عينيك، وطرتُ فرحاً أنني قد منحتهما قدراً من السعادة.

- كان رجوعك قطرات ندى تكاثفت فوق أوراقي بعد هجير أمسٍ راحل، اليوم الأمر مختلفٌ تماماً، اليوم أنا أفكر بجديةٍ بالغةٍ، لقد اعتدت الوحدة، والاعتياد معادلة صغيرة لكنها صعبة، لمتحول الزمن في خانة الشعور.. أنا اليوم أفكر لتحديد مصيري.

- كارلا.. قولي مصيرنا.. أنا أودّ أن نكون معاً.. وأن يكون لنا مصيرنا وغدنا وحياتنا.

- لن أستطيع أن أتخذ قراري بهذه السهولة.. دعني أفكر.. دعني أجد الجدوى.. دعني أقتنع.

التسونامي المنتظر

شعرت كارلا بمرارة كبيرة وبقهرٍ غامرٍ.. حبٌ كهذا.. التسونامي المنتظر.. يعيش في بقعةٍ أخرى من العالم وهي تعيش هنا وحيدة الروح والقلب والجسد.. لم تعد تدري هل تفرح أو تحزن.. ضاعت بوصلتها في خضم الذبذبات العاتية التي تقاذفتها.. الآن.. لم يعد بمقدورها الإنجاب، كما أنها أدمنت وحدتها.. أتراها قادرة على التنازل ولو عن قدرٍ ضئيلٍ من حريتها لصالح شريكٍ جاء متأخراً جداً.. هي تكره الأسر ولو كان الآسر حبيباً، تكره القيد ولو كان مصنوعاً من الذهب الخالص.. حريتها أثمن ما تملك وأروع ما تعيش به، يداها تكتسبان بملء إرادتها، وقدماها يمشيان حيث تملي عليها رغبتها، وقلبها يهوى ما يشاء.. ولكن.. هل تنطبق عليها الآن مقولة..

" أن تصل متأخراً خير من أن لا تصل.. ".

لم تعد تدري.. لكن الحب تفتّح في قلبها دفعة واحدة.. واعترتها ثورة عنيفة خاطفة وانقلاب كوني مباغت.. استيقظ مارد الحب فجأة بعد سبات أعوامٍ وآماد وأحقاب..

ليس للحب عمرٌ.. ليس للقلب حدٌّ.. فهل يصير هذا أوانها هي أيضاً؟!..

راحت تبحث بين أوراقها القديمة وأشيائها عن لوحة جمعت صور جميع الزملاء في دفعة التخرج

نظرت كارلا إلى صورة وائل في لوحة التخرج.. كان شاباً وسيماً، يعلو رأسه شعرٌ كثيفٌ أسود، ويشعّ من عينيه بريق الشباب، بشرته الحنطية الصافية تتألق ملساء مشدودة قد أضاف إليها شاربان سوداوان كثيفان ولحية سوداء محفوفة بأناقة خطوط جاذبية وحكاية وسامة..

عادت بذاكرتها إلى الوراء أكثر من ربع قرنٍ، هناك على مدرجات الجامعة وفي ساحاتها، ضجيج الزملاء ومزاحهم الصاخب.. بعض الزميلات ارتبطن بزملائهن بعلاقاتٍ أودى بعضها إلى زواجٍ واستقرار، بينما امتنع البعض الآخر عن مغادرة أسوار الحرم الجامعي لتؤول بعد ذلك إلى ملفات نسيان قد أقفلت في حينها لتفسح المجال لارتباطاتٍ في قابل الأيام.

تفرست في كلّ الوجوه، واستحضرت بعض الأسماء.. منهم من انقطعت أخباره تماماً، منهم من غادر البلاد بحثاً عن فرص عملٍ أو حياة، منهم من تعرف عنه شيئاً أو بعض شيء، البعض الآخر صار في شبكة التواصل الاجتماعي مجرد اسم صديقٍ.. وائل كان أحدهم.. يا لشبكة التواصل الاجتماعي كم تبتلع من أسماء، وكم يعلق بها أشخاص غيبهم البعد وفارقتهم صراحة الحياة وحيويتها لتغدو افتراضيةً.. واهمةً.. غائبةً في عالم افتراضي.

كان الحياد الفظيع الذي تشعر به حيال مجاملاته آنذاك.. أي أيام الجامعة.. سيفاً مسلطاً فوق مشاعرها.. بدأت تتذكر أكثر

فأكثر.. كيف كان برود عواطفها حينذاك جسراً يعبر فوقه المارون بسرعةٍ مذهلةٍ دون أن يتركوا لها أثراً فاعلاً تقتفيه وراءهم، أو خيطاً رفيعاً تتمسك به من أجلهم.. اليوم لم تعد تذكر كيف كانت البدايات.. ولا النهايات.. هل كان ثمة أخطاء في طريقة تفكيرها في ذلك العهد؟؟!!..

لم يعد التساؤل مجدياً..

اليوم عاد وائل، بعد كلّ هذه السنين يحمل حبّاً عمره أكثر من ربع قرن.. عاد بخطوط صغيرة تتجعد حول عينيه إذا ضحك أو تحدث، عاد بشبه صلعة يحيط بها شعر خفيف يخالطه البياض ويطغى على سواده.. عاد بتجاعيد واضحة حول فمه وذقنه، حليقاً بلا شارب ولا لحية.. عاد بجسمٍ امتلأ شحماً وسلوليتاً.

ضحكت من نفسها وهي تقول..

" فلأنظر إلى صورتي في لوحة التخرج، ولأعقد المقارنة نفسها.. أم تراني بقيت كما أنا شابة في مقتبل العمر ".

يا للمرآة القاسية اليوم.. سيكون حديثها قاسياً مؤلماً وهي تصف كارلا الخمسينية.. ترددت كثيراً قبل الوقوف في حضرة المرآة الحَكم.. محكمة الأيام الآن تعقد من أجلها.. إنها جلسة النطق بالحكم، وقوفٌ خاصٌ لسماع شهادةٍ تخبرها كم طال غياب وائل.. لقد مرّت آنفاً وتمرّ مراراً أمام مرآة منزلها، قبل الخروج عادة، وقبل استقبال ضيوف، أو حين ارتداء جديد ملابس، أو إصلاح زينة، وتقرأ آنذاك... تقرأ مرافعةً قصيرةً

لا تتجاوز الثواني ولا تتراوح بين أكثر من إبداء الرأي والموافقة السريعة على الهيئة العامة لتنطلق بعدها في ممارسة الحياة.

لكن جلسة اليوم وبعد الإدلاء بأدلة اقتراف الترهل الجسدي والتبدلات الطورية في ملامح وائل، ستكون جلسة النطق بالحكم عليها جرّاء عمل المقارنات بين صور قديمة عمرها عمر سني التخرج وبين الحال الآن.

اليوم تستنطق مرآتها القاسية على غير العادة.. بلى لقد تغيرتِ أنتِ أيضاً.. زحفت التجاعيد إلى وجهك واغتال عمرٌ هاربٌ بريق عينيك.. تغضنتِ وكبرتِ وازداد محيط خصرك وأردافك.. خطوتك صارت أصغر وأبطأ.. وبمناسبة الحديث عن الخطوة.. تذكرت يوم كان المدير في بداية استلام عملها الوظيفي يقول لها: أنت فتاةٌ ديناميكية.. فقد كانت تنتعل حذاء قماشياً خفيفاً يحمل خطواتها السريعة برشاقة وكأنها لا تمس الأرض.. كانت تنتقل بالملفات والأضابير بين غرفةٍ وأخرى وبين طابقٍ وآخر بخفة المخلص في عمله الحريص على جودة أدائه.. هيَ الآن على أبواب التقاعد..

في المرآة وجدت وجهاً طافحاً بالذكريات المختبئة تحت تجاعيده وملامح مسكونة بحنين مغيب وشوق رابض... غاصت أكثر فوجدت قلباً مغموراً بالعاطفة مأسوراً بالأحاسيس يعربد في قاعه حبٌ مبهم.

لقد خاضت أغلب الفتيات والصديقات من حولها تجاربهن الخاصة في حياة زوجية تراوحت بين الفشل والنجاح، واليوم

يعرض عليها وائل الدخول في عوالم تجربة فريدة لا تشبه تجربة أحد.. اليوم يوقظ فيها الرغبة في أن تكون زوجة أحدهم، ويعلن لها هذا الحق في هذا الجانب النائي من حياتها.. يا الله كم تأخرت يا وائل.. أيها التسونامي المنتظر.. أين كنت؟! بل أين أنت الآن؟!!.. أنا لا أراك جيداً.. لقد استوطنتَ النقطة العمياء.. هناك.. حيث ألقى بك الغياب الطويل.. وهكذا هي الأشياء التي في غير أوانها..

أخبرتها الجارة الصديقة سلمى ذات بوحٍ..

" هكذا هي الحياة، والأوان قضية نسبية.. لقد فرض علي والدي الزواج وأنا ابنة الخامسة عشر.. اعتبرته آنذاك قبل أوانه.. الأقدار تتم في أوانها هي، نائية عن تقديراتنا وتصوراتنا، مجهولة الأسباب والحيثيات بالنسبة لنا، نقيّمها نحن في كثيرٍ من الأحيان على أنها في غير أوانها تحدث.. ولكنه أوانها يًا كارلا.. أوانها، ونحن لا ندري ".

هناك أشياء قد تصل في الوقت الخطأ، وأشياء تأتي وكأنها لم تأت، وأخرى تجيء على عجلٍ لتغادر على عجل، ورابعة ننتظرها دون أن نحرك ساكناً لأجلها، هي الأشياء تحدث في آجالها دون أن نعي.. هي وعود الضوء في آخر النفق، دون أن نعرف طول المسير فيه.

ها هو وائل.. التسونامي المنتظر.. يخبرها أن الحب لا يستأذن بالدخول.. يتسلل عبر خلايانا إلينا، ويستقر في دواخلنا كيف ومتى شاء، متربعاً فوق عروشنا، متحكماً في سلوكنا، لا نملك له دفعاً أو إيقافاً.. بل على العكس تماماً، فترانا نلتمس له

المبررات، ونخترع له الدواعي.. نصدّق أكاذيبه بسذاجةٍ، ونتغافل عن عيوبه أو نغفل حقاً، نفتح له نوافذ قلوبنا مهما كان قارس البرد، ونحتمي بمظلته ولو علمنا أنها كثيرة الثقوب، ونظنّ به الخير دائماً رغم كل ما سمعناه عن عذاباته وأساه..

" والآن.. الآن يا كارلا؟؟!!!! "..

سألت نفسها وهي على أبواب اتخاذ القرار.. قالت بصوتٍ مرتفعٍ يصل إلى مسامع وعيها:

" والآن.. يا دوامة الفرح اشتدي.. اقذفيني إلى أصقاع البهجة، وارمي بي على تخوم متعة العيش، أريد أن أغتنم قوة دورانك الآن لأنطلق بعيداً عن مفاوز الكآبة وأغلال الحزن..

أعرف أنك لن تدومي، وأنك زائلة مثل كلّ شيءٍ زائل، لذا أطلب منك أن تمنحيني فرصة أن تتعرى أغصاني من أوراق صفراء مائتة، فتترك المجال ليبزغ مكانها ربيعي الأخضر.. أنت مؤقتة مثل إعصارٍ يمرّ بالمكان، لكنك لن تتركي في روحي دماراً غير دمار مضاري وفوضاي..

يا دوامة الفرح.. حطّي في مساحات الوجدان، وانبثقي سلاماً، أعشقه ".

وما دام لكلّ الأشياء بداية ونهاية، فلابد أنها محكومةٌ بتوقيت البدء والانتهاء.. الحزن يبدأ.. ليسدل ستائره القاتمة السميكة على جدران نفسٍ صامتة معتمة.. ثم ينتهي عندما تشرق شمسها

الحبّ يبدأ.. ليدفع بالإنسان إلى ضفاف محبوباته وفضائها، ثم ينتهي مع إصدار أحكام القدر ونفاذها.

والعمر يبدأ.. ليزاول المرء فيه مهاماً محددةً تتفاوت في نصيبها من القسر والاختيار، يواجه أقداراً، ويصنع أخرى.. وهو بكل شأنٍ يحاول أن يختصر الطريق إلى بر السلامة، باختياراتٍ، يتوهم فيها أطواق نجاة.

عجزٌ وإرادات

ذات أصيلٍ صيفيٍّ قائظ، وبعد أن تناولت الأسرة غداءها الدسم... تمددّ أفرادها في أماكن متعددةٍ من أرجاء المنزل، وجلست سلمى حيناً تصغي لذاتها كما اعتادت.. كانت ترغب في تمضية هذا الوقت بممارسة هواية إعادة تدوير الورق التي تعلمتها مؤخراً، كما كانت تريد أن تأخذ، كالباقين، قسطاً من الراحة في قيلولة صغيرة، أو لعلها كانت مضطرة لإتمام الحصة اليومية من قراءة القرآن، وقد توقفت عن التلاوة حين زارتها صديقتها، لا بل أرادت أن تكتب فصولاً في روايتها لكي تسارع في إنجازها.. كما بزغت في داخلها رغبة أن تسترخي وتستمع إلى مقطوعات موسيقية هادئة؟!.

وتزاحمت كل الإرادات في رأسها، حتى بات فارغاً من العزم على أي منها.. أثقلته الأمنيات الصارخة، الراقصة كلهبِ فتيلٍ مشتعلٍ في معبر هواء.. ترى أي شيءٍ تفعل؟!! والبواعث إليها جميعها والدوافع لفعلها قوى متساوية القدْر... آهٍ.. ما أعجز الآدمي عندما يفتقر إلى حيلةٍ موفقةٍ تحمل إليه رغائبه المشتهاة كلها دفعة واحدة.. ما أعجز الآدمي وهو يقف عند حدود الوقت فلا يستطيع أن يُفرغ فيه إلا شيئاً واحداً.. تنهدت وتمتمت..

" آمنت بك ربي وأنت القادر، القدير، المقتدر، القيوم، لا يعجزك أن تقوم على أمر جميع خلقك في ذاتٍ كلمح البصر ".

عند هذا المخلوق البشري الضعيف، أنت تجد كلّ الحالات، والتحولات، والاحتمالات .. كلّ ما يمكن أن تجده في الكون من أصداء.. لكنه محكومٌ بعتبات الحواس والوقت والحياة.. نعم.. لقد اشتهت رغائبها كلها، لكنها وقفت عاجزةً عند البدء بأي منها لغلبة الرغبات وتغالبها، فقررت الهروب.. قررت الهروب إلى النوم، إلا أنها أرقت، وجافى النوم عينيها.. ففتحت مسودة روايتها وأضافت إلى سطورها الأخيرة بداية خاتمة كانت تحاصر نومها وتعانده، عصية وغائبة:

" النوم سلطان يأخذنا حين يشاء، أو حين نفسح له المجال، أو حين نستدعيه فيلبّي.. أو على حين غرّة.. يأخذ بألبابنا إلى غيابٍ مؤقتٍ، ويطوف بأرواحنا في عوالم مجهولةٍ.. لكننا أحياناً نفقد قدرتنا على استدعاء حضرة جلالته، نغوص في لجة قلقٍ متلاطم الأفكار لا تهدأ ثائرته ولا يرجا سكونه، تغادرنا فيه راحة بالٍ وتفارقنا سكينة نتأرجح في تضاعيف مدته بين أصقاع متناقضة من خوفٍ وأمن، ومن يأس ورجاء ومن تقاربٍ وابتعاد.. يا لسطوة سلطان النوم حين يهملك ويغض الطرف عنك، أو حين تأخذك سنة خاطفة على حين غفلة، عندها يتوقف لديك عمل الحواس ويقفل العقل نوافذه وتموت ميتتك الصغرى..

سبحان الحيّ القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم.. أرأيت ضعفك يا ابن آدم!!! فلو كنت تقود سيارتك فإن سِنَة خاطفة قد تودي بحياتك.. فمن أنت!!! يغلبك النعاس، ويؤلمك الجوع، ويهلكك العطش، ويضيق بك الشوق ".

الساعة والمرآة والعصا أيقونات للزمن النابض الممتد.. الساعة صوته المسموع، والمرآة صورته المتبدلة دائماً، أما العصا فهي الدليل الأخير على مرور جحافله.

اليوبيل الفضي

في يوبيل زواجه الفضي أراد سامر أن يكون احتفالهما هذه المرة مختلفاً عن المرات السابقة التي كان يرحل فيها دائماً مع زوجه سلمى لقضاء يومٍ عسلٍ في مكانٍ ما.. تاركاً ولديه سمار وسوسن.. كانت دائماً الساعة الثانية عشرة ليلاً التي تعلن رحيل يومٍ وبدء آخر، هي ساعة الصفر، يغادران المنزل في هذا التوقيت بالضبط ويستقلان سيارتهما باتجاه أحد الفنادق الفخمة لينزلا في جناحٍ محجوزٍ مسبقاً من قِبله.. وفي تمام الثانية عشرة ليلاً التالية يعودان بعد قضاء يومٍ كاملٍ.. كان حريصاً كل الحرص على أن يكون عيد زواجهما لهما فقط، يحقق لسلمى فيه كل ما تشتهي، من زيارات أمكنةٍ ومرافق داخل المدينة أو خارجها.. قد يزوران المتاحف أو المسارح أو المنتزهات أو الأسواق الكبيرة (المولات) في تسوّق خاصٍ بها، أو الأماكن الأثرية السياحية التي تضج بالسياح والزوار..

واليوم ٢٠١٧/٧/٧ وبمناسبة مرور خمس وعشرين سنة على زواجهما في ١٩٩٢/٧/٧ أرادا أن يدعوا الأهل والأقرباء إلى مشاركتهما احتفالهما باليوبيل الفضي.. كان ثمة مفاجآت تنتظر المدعوين.. مفاجآت اتفقا عليها وخططا لها.

اجتمع المدعوون، وبدأت مراسم اللقاء تشع حيوية وسروراً، ضحكات هنا، وأحاديث مرحة هناك، وأطايب من الطعام والشراب في متناول الأيدي والأفواه.. وفي نهاية سهرة جميلةٍ.. جميلة، أعلن صاحب الدعوة عن مفاجأتين ..

"يسرنا أن يكون يوم عيد زواجنا هذا، حفل توقيع كتاب زوجتي.. هذا كتاب سلمى الأول الذي قامت بتأليفه على مدى عامين.. إنه روايتها الأولى.."

صفق الجميع بحرارةٍ، وتعالت كما تتالت التهنئات والمباركات.. سأل أحدهم:

- ما اسم كتابك؟ وعم يتحدث؟

- إنه رواية بعنوان " بنك الأيام ".. بنات أفكاري العابثات

- قد كنت تكتبين دون أن تخبرينا بذلك إذا!!

- أردت أن أجعلها مفاجأة لكم.

- حقاً.. إنها مفاجأةٌ سارة.

مدّ والد سلمى يده لاستلام أحدى النسخ قائلاً:

- بنك الأيام؟! اسم ذو مغزى جميلٍ ومعبّر.. أريد منها نسخة لأكون أول من يقتنيها وليكون لي شرف قراءتها أولاً.

تسارع الحضور لاستكشاف مفاجأة نجمة الحفلة بلهفةٍ وفخر، بينما كانت سلمى سعيدة متألقة تضج بالفرح والفخار.. قال أحدهم:

- لن يكون من المناسب أن نسألك عن مضمون الرواية الآن، سأقوم بقراءتها، وسيكون لنا نقاش حولها في قابل الأيام.. ما

رأيكم أعزائي؟ أتوافقونني على موعد قريبٍ وليكن بعد أسبوعين؟

تحمسّ المهتمون بالقراءة من أفراد العائلتين وأعلنوا موافقتهم على الاقتراح السخي ثم حددوا يوماً للقاء.

أعاد سامر استقطاب انتباه الحضور الكريم إليه وقال في حركة مسرحية دمثة:

- والآن يسرني أن أقدّم لكم المفاجأة الثانية.. إنها لوحات تضمّ لقطات من فن التصوير الضوئي الفوتوغرافي..

تفضلوا.. انظروا إلى هناك..

هناك حيث يوجد حامل رسم خشبي أنيق، كان يحتل ركناً في زاوية الغرفة الكبيرة، ويغطيه بأناقةٍ تراثيةٍ مفرشٌ من الدامسقو المقصب، وقف سامر ورفع الغطاء ثم راح يعرض عدداً من الصور الفوتوغرافية، كانت لقطات رائعة استطاع بكاميرته أن يتصيدها، لقطةٌ لرجلٍ عجوزٍ يجلس على أحد مقاعد الحديقة العامة وقطٌ كبيرٌ يرفع قائمتيه ورأسه لالتقاط لقمة منه.. لقطةٌ لرجلِ شرطةٍ يوقف السير بيدٍ ويعين أعمى بيده الثانية.. لقطةٌ لشجرةٍ تنحني ساقُها كسجودٍ خاشعٍ لخالقها.. لقطةٌ لنصف قرصٍ للشمس الأحمر ساعة بزوغها من خلف قمة جبل الأقرع.. لقطةُ غروبٍ ساحرٍ تجمع بين شاطئ وجبل.. ولقطةُ أمٍّ تحنو على رضيعها في يومٍ قارس البرد.. لَقطة جدّةٍ يتحلق حولها عشرون حفيداً من حفدائها وهي تحتضن أصغرهم سناً ذا الأشهر السبعة.. صورة جماعية واحدة تجمع أربع صور

حالاتٍ لشجرةٍ بعينها، وهي تستقبل الفصول الأربعة، في الأولى، أغصان يكسوها الورق الأصفر الخريفي المائت الذي يترنح أمام كل هبة ريحٍ ويتساقط ذاوياً قد غادره نسغ الحياة فهوى تتقاذفه أقدام المشاة، حتى تتعرى تماماً في حالة فصل الشتاء فلا ترى فيها إلا أعواداً متفرعة يكسوها الثلج بلونه الناصع البياض، ثم تتفتق براعم أوراقها الخضر في صورة الربيع، ليكسوها الزهر الجميل فالثمر صيفاً.. وغيرها.. وغيرها..

صفق المدعوون بحرارة وقد أبدوا إعجابهم الكبير بما رأوا..

قال أحدهم:

- ما أجمل هذه اللوحات!!.. هل هذه لقطاتك؟!.

- نعم.. وبكلّ فخرٍ.. شاركتني فيها صديقتي الحبيبة " زينيت ".

- من؟!! صديقتك!! الحبيبة!!

- نعم.. كاميرتي " زينيت "..

- إن لك عيناً مرهفةً، تلتقط الجمال حيثما كان.

- يا لها من هواية جميلة..؟!.

- التصوير يحبس الزمن في لحظة خاطفة.. والمشاهد لا تتكرر في الأكوان مرتين، إن لقطة الكاميرا هي صيد الموقف والمشهد، تماماً مثلما الكتابة هي صيد الخاطر والفكرة.

- لقد ذكرتني بمقولةٍ للفيلسوف اليوناني هيراقليطس..

" أنت لا تسبح في مياه النهر الواحد مرتين "..

- وها نحن اليوم أنا وزوجتي سلمى نقدّم للجميع صيداً ثميناً من صيد المواقف والخواطر.. ونأمل أن يسرّكم ويدخل البهجة إلى قلوبكم.. ونعدكم دائماً بالمزيد من المفاجآت الثمينة ما تقدّم بنا العمر.. وأسعفتنا الصحة.. وطال بنا التجوال في حدائق الإنجاز.. إلى أن يتخطفنا الموت في أوانه وأجله المسمى..

حبة رملٍ أخرى تعبر مضيق البنكام.. لا تقفل الأحداث قبل خروج النفس الأخير.. ولن تكون حبة الرمل الأخيرة إلا لحظة تسليم الروح إلى بارئها.

القرار

أرادت كارلا لقاءً أخيراً بجارتها الصديقة قبل أن تُقدمَ على اتخاذ القرار الخطير لحياتها.. استأذنت بالزيارة وجلست وكأنها تتأهب لسفر طويل أو لرحيل مباغت.. نظرت في عيني سلمى وقالت:

- سلمى.. أنا في داخلي طفلةٌ لما ترتوِ بعد من ماء الحياة، ولم تنعم بمباهجها.. أراها طفلةً، هناك تحت شجرة الأمنيات، تعقد فوق كلّ غصنٍ شرائط ملونة لرغباتها وأحلامها، ثم تجلس مستندة إلى جذعها وهي تنتظر، دون مللٍ أو سأم.. طفلة لم تحمل في يدها ساعةً لتنبئها أن الوقت قد تأخر، وأن عليها العودة إلى زحام الواجبات وفوضى العدالة الأرضية.. طفلة تتوهج في قسماتها أشواقٌ مشروعة لعمرٍ غائب، أرغمها طويلاً على تحمّل بلادة الفراغ والحرمان.

- ولقد آن لهذه الطفلة أن تكتشف مغامرة الحياة وأن تشرع في تذوقها.

- كم تتزين هذه الخطوة أمام ناظري! وكم أجد برودة أصفاد وسلاسل الذكريات المؤلمة فوق أطرافي.. أنا أرغب ثم أُحجم، وتتصارع الرغبة القوية فوق حلبة اتخاذ القرار مع ألف حسابٍ لها.. أسمع مرارة الماضي تهزأ بي، وأرى مخاوف الغد ترمقني باستنكار.

- كارلا أنصحك ألا تتعثري بشيءٍ خلفك.. إن ماضي والديك صار خلفك، وغياب وائل الطويل قطعه رجوعه المشتاق وصار جزءاً من أمسٍ غابر.. والأنا داخلك المبحرة في سفن الحذر والتوجس المتمسكة بحبال الوهم طافت بك طيلة حياتك السابقة في بحار الحرمان والظمأ، ها هي قد حملتها الأقدار عنوةً إلى شواطئ فرحٍ قادم فآبت الآن عند وعود وائل.. هيا أحرقي هذه السفن الظّالمة التي هدرت شطر عمرك أو ربما أكثر من يدري.. افتحي ذراعيك لرياح الحب الطازج واقطفي أسعد لحظات الحاضر.. أقفلي باب الأمس وارمي مفتاح الباب في خندقٍ مليءٍ بالتماسيح القاتلة حتى لا تراودك نفسك باسترجاعه والعودة إليه.. كوني امرأةً جديدةً تغفر زلات ماضيها وتمسح من ذاكرتها آثاره السيئة، وتحذف بكبسة زرٍ كما في الحواسيب الكبيرة والصغيرة ما لا ترغب بالاحتفاظ به من ملفاتٍ قديمة.. صديقتي.. فليتسع حاضرك لفرحة قلبك، لفرحةٍ أقرأ تباشيرها في عينيك.. ما رأيك ألا تفكري في مآل هذه العلاقة غداً، لا تشبعيها تحليلاً وتمحيصاً.. عيشي أبعاد التجربة كاملةً، وتنفسي حاضرك بعمقٍ في كلّ شهيقٍ وزفير.. عيشي الآن فقط.. بلا أمسٍ ولا غدٍ.

- كم من الوقت سأحتاج لأشفى من كدمات تلك الأغلال**!** كم سيلزمني للانعتاق من هذه القيود**!**

- تلزمك لحظةٌ واحدةٌ، بحجم قرار.. بحجم حبة رملٍ تهبط في مضيق خصر البنكام.

ساد الصمت الذي يسبق العاصفة، وتوقفت كلّ الأشياء المحيطة بهما عن التنفس وكأنهما في غرفة مخاضٍ، وقد أزفت ولادة متعسرة..

فكرت أن تترك لنفسها فرصةً حقيقيةً في اختبار خوض التجربة..

لم ترفض، ولم تغلق الأبواب في وجه الزائر الغريب القادم من أصقاعٍ بعيدة، قررت كارلا الاستسلام للإعصار الذي جاء ليقلب ًأوقاتها رأساً على عقب..

لم تشأ أن تتكهن بما سيكون، ولم تحاول أن تتذرع بالحجج الواهية للوقوف في وجه الطوفان..

لم تبحث عن مكان تأوي إليه ليعصمها من الحب، ولا عن جبلٍ يحميها من الغرق، فليكن ما يكون.. ستمنح وائل.. بل ستمنح نفسها مفاتيح القلعة السحرية التي بنتها في أحلامها دهراً طويلاً.

أمسكت كارلا جوّالها.. بحثت بين أسماء جهات الاتصال عن اسمٍ حفظته بعبارة..

" عائد من الماضي "..

أسدلت ستارة التعديل.. وقد أرادت حقيقة التغيير.. وراحت تكتب..

" فرحة عمري ".

تفاصيل

أيامٌ قلائل مرّت كمهرجان فرحٍ يتقاطر اهتماماً حقيقياً، شاركت به سلمى جارتها العروس في استكمال لوازم فرحتها المنتظرة.. لم يكن التأخير وارداً أبداً، وقد أمعن العمر في الهروب والتسرب من بين أصابعها.. وها هي الساعات الأخيرة قد اكتظت بالكثير من الشؤون المطلوبة لمغادرة حياة العزوبية.. حتى حانت لحظة الوداع..

وقفت كارلا أمام سلمى، ترفل بكامل أناقة عروسٍ ليلة زفافها.. عانقتها عناق محبةٍ وامتنانٍ وعرفانٍ بالفضل.. وهبطت درجات سلم البناء وهي تقول لها:

- أحبك سلمى.. أحبك..

اغرورقت عينا سلمى بالدموع، وانتابتها مشاعر متلاحقة يتدافع فيها الفرح والأمل مع لوعة الفراق..

أغلقت الباب خلفها، وراحت تتأمل أيقونات الحب المبجل، هدايا أعياد زواجها، الرابضة في أماكنها المعتادة، وراحت تدعو لكارلا في سرّها أن يكون لها أيقوناتها الخاصة..

جلست إلى طاولة مكتبها وقد أزمعت أن تبدأ بكتابة روايةٍ جديدةٍ.. فتحت دفتراً جديداً وأمسكت بقلمها لتكتب في أول الصفحة عنوان الرواية..

" تفاصيل "

لكن القلم أفلت منها، وقد تراخت يدها عنه.. وضعت رأسها على الطاولة..

وراحت تغط في نومٍ أبديٍ لا يعلم مداه إلا الله.

- تمت –

المؤلفة في سطور

يمان عبد الحميد ياسرجي - مهندسة معمارية - صدر لها :

- عقد الياسمين / مجموعة قصصية /
- فسيفساء في خزينة الذات / وجدانيات وقصائد /
- لغز المحال / وجدانيات وقصائد /
- كن رائع الجمال / مقالات قصصية /
- جحا يزور التليتبيز / مسرحية للأطفال /
- كانوا أطفالاً مثلكم / قصص للناشئة /
- بصمات / مقالات قصصية /
- المفكرون الصغار / مسرحية للأطفال /
- حكايات للجيل القادم / قصص للناشئة /
- قلمٌ يكتب الحب / مقالات قصصية /
- إيقاعات ملونة / قصص ومقولات قصيرة جدًا /
- سياحة خاصة مع الحيوان في القرآن/تأملات فكرية/
- كمَثَل حبة / تأملات فكرية /
- إليك يعود الصدى / قصص للناشئة /
- في حضرة الوطن / وجدانيات وقصائد /
- عندما يعصف الحب / رواية /

كتب قيد الطباعة :

- أيام الفتى عربي / مسرحية للأطفال /
- أبوح ولا أبوح / وجدانيات وقصائد /
- حروب على تخوم الروح / تأملات فكرية /
- ثورة طائر الفينيق / وجدانيات وقصائد /
- حكايات الطفل المبدع / قصص أطفال (٨ - ١٠) /